أم السّعدْ

حواديت عربيّة

٢

أم السّعد

تاليف

عبّاس خضر



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

كانت المجموعة الأولى « الطير الحدارى » من سلسلة « حواديت عربية » تضم طائفة من هذه القصص الشعبية العربية ، بعضها مادته من مصر ، وبعضها من سوريا ، وبعضها من السودان .

وقد لحظنا بعض الفروق الشكلية القليلة فى هذا الفن بين البلاد العربية المختلفة ، ولكن القصص كلها — على اختلاف الأصل الذى استُقيتْ منه — تماثل فى المضمونات الإنسانية والروح العامة ، بل هى تتحد كذلك فى بعض الشكليات . وقد أثبتنا هذا وذاك فى مقدمة المجموعة الأولى .

وهذه المجموعة الثانية « أم السعد » استقيت مادتها كذلك من بلاد عربية مختلفة ، ولكننا لم نر التفريق بينها ، فالكل عربى ، والكل يحمل ملامح واحدة ، ويتجه اتجاهاً واحداً برغم الاختلاف الشكلى القليل .

والاتجاه الذى يسود هذه القصص هو الكفاح الدائب المتفائل ضد أعداء الخير والإنسانية . وهذا الكفاح سمةٌ مشتركة ثابتة فى أمتنا العربية ، مما يدعونا إلى التفاؤل والأمل فى مستقبلها الموحَّد ، وتحررها من أعدائها : أعداء الخير والإنسانية .

* * *

هذا ومما ينبغى ذكره أن بعض الزملاء سألنى : ما هو دورك فى هذه القصص ؟ وهل هو مقصور على الصياغة والأسلوب ؟

وأجيب :

إننى أسمع « الحدوتة » من مصدرها الشعبي الشفوى ، ثم أعيش معها بفكرى وشعورى مدة ، حتى تتكون فى ذهنى ووجدانى عملا قصصياً يشبه القصة القصيرة الحديثة ، وخاصة فى وحدة الحدث والدلالة الفنية ، ثم أبنيها وأكتبها على هذا الأساس .

وبالطبع ليست كل «حدوتة» تصلح لذلك ، وأنا أختار منها كما يختار كاتب القصة القصيرة الموضوع والأشخاص والحادثة التى ينفعل بها .

وتلك العملية تستلزم حذفاً فى بعض الحوادث وإضافة لخيال جديد ، ولكنى أحرص على أن تكون الإضافة من جنس الفن «الحدوتى» كما أحرص فى الوقت نفسه على بعض العبارات والأساليب التى هى من خصائص هذا الفن .

وبالاختصار . . أحول « الحدوتة الخام » إلى خلق أدبى أقرب ما يكون إلى فن القصة القصيرة . وأعتقد أن هذا تطوير يشبه ما يصنع فى الفنون « الفولكلورية » الأخرى ، حتى تلائم العصر الحديث .

ومن المعروف فى مراحل الفنون الفولكلورية أن كل من يتناولها من فنانى الشعب — بالحكى أو بالإنشاد أو بأى مما يلائم كل فن — يضيف إليها من نفسه ما يراه ملائماً للبيئة والعصر اللذين يعيش فيهما .

وأنا أعطى لنفسى هذا الحق الطبيعى المتجدد ، على طريقة عصرى وثقافته وفنونه .

ولا أدعى أنى وفقت فى كل ذلك ، بل حسبى أننى اجتهدت . . اجتهدت فى تصور الخطة وفى تنفيذها . والتوفيق شىء آخر أرجو أن أكون قد حققت ولو شيئاً منه .

عباس خضر

الوزير الرحيم

سمع الأمير بجمال بنت السلطان الذى يحكم بلاداً بعيدة عن بلاده ، وأصغى لما ورد إليه من الأخبار التى تشيد بحسنها ورقتها وحميد صفاتها ، فراح يتصورها فى خياله ويتملّى صورتها ، حتى أحبها وصارت أمنيته أن تصبح زوجة له .

وكان لهذا الأمير وزير مخلص له لا يدخر جهداً فى خدمته والعمل لإسعاده ، فوثق به حتى وكل إليه جميع شئون إمارته .

أفضى الأمير إلى وزيره بحقيقة مشاعره نحو بنت السلطان ، وقال له : إنه لا يهنأ له بال ولا يسعد بعيش إلا إذا تزوجها . ثم أمره أن يرحل إلى السلطان ويخطب له ابنته ، وحمله هدايا كثيرة تليق بمقام السلطان .

انصاع الوزير للأمر ورحل إلى بلاد السلطان . وبينما كان فى الطريق وجد صقراً مكسور الجناح يتألم من جرحه ولا يستطيع الطيران ، فرق له قلبه ونزل عن فرسه وربط له الكسر ونثر أمامه بعض ما معه من طعام ، وقدم له بعض الماء ، فأكل الصقر وشرب وزال ما به من ألم ، فأراد أن يجازى الوزير على معروفه وجميل صنعه ، فنزع ريشة من جناحه وقدمها له قائلا : « إذا احتجت إلى مساعدة فادعك هذه الريشة تجدنى أمامك ألبى جميع طلباتك » .

استأنف الوزير رحلته ، فسار حتى اشتد به العطش ، فمال إلى نهر

قريب ليروى ظمأه ، وبالقرب من النهر وجد سمكة خارج الماء تتقلب وتلهث من شدة التعب ، فأخذها في يديه برفق وحنان وألقاها فى الماء ، فأهدت إليه قشرة من قشرها وقالت له :

« إذا احتجت إلى مساعدة فادعك هذه القشرة تجدنى أمامك ألبى جميع طلباتك » .

ومضى الوزير فى رحلته لا يعبأ بما يلاقيه من متاعب ومشقات ، حتى صار قريباً من بلاد السلطان ، وفى طريقه رأى نملا كثيراً متجمعاً فى عرض الطريق ، فتنحى عنه حتى لا تدوس حوافر فرسه النمل فتقتله ، وشاهدت ذلك منه كبيرة النمل ، فتقدمت إليه وشكرته ، وأهدت إليه حبة قمح وقالت له :

« إذا احتجت إلى مساعدة فادعك هذه الحبة تجدنى أمامك ألبى جميع طلباتك » .

ولما بلغ الوزير قصر السلطان استأذن عليه ومثل بين يديه ، وأنهى إليه رغبة الأمير فى زواج ابنته ، فوافق السلطان ، على شرط أن ينفذ الوزير جميع ما يطلب منه ، وإذا أخفق فى أمر واحد فسيكون مصيره الموت . فقبل الوزير الشرط .

أمر السلطان بجمع حبوب من مختلف الأنواع وخلطها وجعلها كومة واحدة ، وطلب من الوزير فصل كل نوع منها وحده ، على أن يتم ذلك فى يوم واحد .



حار الوزير فى هذا الأمر ، ولكن حيرته لم تطل ، فقد تذكر الحبة التى أعطتها له النملة ، فدعكها ، فإذا النملة حاضرة أمامه ، فاستشارها فى الأمر ، فذهبت وأحضرت عدداً كبيراً جداً من النمل استطاع أن يفصل الحبوب ويضع كل نوع منها على حدة فى وقت قصير .

ثم أخبر الوزير السلطان بأنه فرغ من فصل الحبوب وتمييز بعضها من بعض . ولما شاهد السلطان كل نوع من الحبوب وحده دهش . . ثم طلب من الوزير أن يحضر له خاتماً سقط منه فى النهر منذ سنين .

ذهب الوزير إلى النهر ، ودعك قشرة السمكة ، فإذا هى أمامه ، فحدثها بالأمر ، فجمعت سمكاً كثيراً للبحث عن الخاتم ، وفى مدة قصيرة خرجت السمكة من الماء تحمل الخاتم .

أخذ الوزير الخاتم وذهب به إلى السلطان ، فدهش وفرح به . ثم قال له :

« بقى مطلب واحد إن أنجزته تمت الخِطْبة ، ذلك أنه يوجد ماء يحيى الميت فى غابة تسكنها الوحوش ، والمطلوب منك أن تملأ لنا زجاجة من ذلك الماء » .

وكاد اليأس يدب فى نفس الوزير ، ولكنه تذكر الصقر وريشته ، فدعك الريشة ، فإذا الصقر أمامه ، فطلب منه أن يحضر الماء الذى طلبه السلطان . فغاب الصقر قليلا ، ثم عاد يحمل الماء المطلوب . . .

عجب السلطان من الوزير ولم يسعه إلا أن يقبل زواج ابنته من الأمير .

وعاد الوزير إلى أميره ، وفى صحبته عروسه بنت السلطان ، وكان الأمير قد اشتد به الشوق إلى رؤيتها ، فسر بها سروراً عظيماً ، ورحب بالوزير وأعجب بإخلاصه ، ونزل له عن جزء من إمارته وصار من أحب الناس إليه .

السبيل

قالت الجدة العجوز لأحفادها الصغار :

كان . . . يا ما كان . . . ولا يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه السلام .

قال الأولاد :

عليه الصلاة والسلام .

قالت الجدة :

كان فى قديم الزمان رجل يطوف بالبلاد ويتنقل بين الربوع ومضارب البدو كى يبيع لأهلها الخرز والمناديل والأقراط والعقود والمرايا والأمشاط ، يقضى فى ذلك طول النهار ، ثم يعود فى المساء إلى بلده وأولاده حاملا إليهم ما رزقه الله وما تيسر له من أنواع الطعام والحلوى والهدايا التى تفرح الأولاد .

وكان كثيراً ما يمر بأماكن لا يجد فيها ماء ليشرب منه ، فيصبر على عطشه ساعات طويلة حتى يصل إلى مكان به ماء ، وإذا حدث أن صادف فى الطريق « أزياراً » فيها ماء فرح بها فرحاً عظيماً وارتوى منها ودعا للمحسنين الذين وضعوها بأن يزيدهم الله من نعمه ويجزيهم خير الجزاء .

ثم قال فى نفسه : لماذا لا أفعل مثل أولئك المحسنين ؟ لابد أن كثيراً

من الناس يمرون بذلك الطريق الذى يقع على مسافة من منزلنا ، ولا بد أنهم يعطشون كما أعطش ولا يجدون ماء يشربون منه .

وفعلا أتى بثلاثة « أزيار » ووضعها بالعراء على جانب الطريق وصار يملؤها بالماء كل ليلة قبل أن ينام لأنه فى الصباح يكون مشغولا بإعداد بضاعته حريصاً على التبكير فى جولاته قبل أن تحمى الشمس ويشتد الحر .

وخطر له ذات صباح وهو يمر بالأزيار أن يتفقدها ويتحقق من امتلائها بالماء ، ولكنه عندما نظر فيها واحداً واحداً وجدها خالية من الماء ، فقال فى نفسه لعل المارة بالليل كانوا كثيرين فشربوا الماء كله ، ولكنه فى الصباح التالى مر بها ونظر فيها فلم يجد ماء ، فعجب ، واشتد عجبه لما تكرر ذلك فى الأيام التالية ، وداخله الشك فى أمرها .

وفكر التاجر ملياً ثم استقر رأيه على أن يراقب الأزيار بالليل ليرى بنفسه ما يحدث . ملأ اثنين منها ، أما الثالث فتركه فارغاً ، ثم دخل فيه حتى لا يراه أحد ، وظل ساهراً يترقب .

وبينما هو جالس القرفصاء فى ذلك الزير سمع صوتاً غريباً ، فنظر ، فرأى طائراً كبيراً عرف مما كان يسمعه من أوصافه أنه « الرخ » .

هبط الرخ بجانب الأزيار ، ولم يمض قليل من الزمن حتى أحس التاجر بأن الزير يرتفع به ويرتفع . . فذهل وخاف وأيقن أنه هالك فى هذه الرحلة الجوية التى لا يدرى إلى أى شىء تنتهى به .

وبينما هو فى خوفه وذهوله إذ أحس بالزير يهبط به شيئاً فشيئاً حتى

استقر على الأرض ، فأحس بارتياح وداخله التفاؤل بالنجاة .

وأراد أن يعرف بأى مكان هو ، فنظر من أعلى الزير فرأى الأرض التى أنزله بها الرخ ذات ألوان مختلفة . . . ذهبية وفضية وحمراء وخضراء . . . تبعث من جوانبها أضواء ترسل بريقاً يكاد يخطف الأبصار ، ورأى الرخ ينقل الماء من الزيرين المملوءين إلى صغاره التى تحركت لاستقباله وصارت تتنطط على الأرض وتتواثب فى سرور ، والرخ يحنو عليها ويسقيها ويملأ الأوعية التى بجوارها .

وخرج الرجل من الزير وسار على الأرض ببطء وحذر ، وجعل يتأمل ما حوله ، فعرف أنه حل بأرض تكسوها الأحجار الكريمة من ذهب وفضة وزمرد ومرجان وغيرها . . فأخذ يجمع منها ما استطاع حمله .

وتعجب غاية العجب لأن الرخ لم يكن ينظر إليه كأنه لا يشعر بوجوده . . فتجنب هوكذلك أن يبتعد عن طريقه ولا يقترب من صغاره .

ثم دخل الرجل فى الزير بما جمعه من الأحجار الكريمة ، وبعد قليل أحس بالزير يرتفع به ويطير فى طريق العودة . . . ثم استقرت الأزيار الثلاثة فى مكانها حيث وضعها الرجل التاجر على مسافة من منزله .

حمد الرجل الله وشكره على نعمته ، ثم عزم على أن يستغل المال الذى حصل عليه فى فعل الخير ونفع الناس ، فأتى بأربعة أزيار أخرى ووضعها بجانب الثلاثة الأول ، فصار الجميع سبعة ، وصار يملؤها بالماء

كل ليلة . وبنى بجوارها مسجداً ، وصار يساعد كل محتاج .

وفى كل صباح يمر الرجل بالسبعة الأزيار فيرى الثلاثة فارغة ، والأربعة مملوءة ، فيعلم أن الرخ يأخذ حاجته من الماء ويترك الباقى للعابرين وأبناء السبيل .

وقبل أن يموت التاجر أوصى أولاده أن يداوموا على رعاية الأزيار السبعة وملئها بالماء حتى يبارك الله لهم فى أموالهم وأولادهم ويعيشوا فى سعادة ، فحافظ الأولاد والأحفاد على العهد وحرصوا على تنفيذ الوصية .

قالت الجدة لأحفادها الصغار وقد شملهم السكون :

— أتعرفون « السبعة الأزيار » التى يذهب إليها الناس من كل مكان ويشربون منها ويتبركون بها ؟ .

— نعم نعرفها .

— إنها هى . . صارت « سبيلا » لله .

الشباب الطروب

حمل « عبدون » مزماره الذى لا يملك غيره من حطام الدنيا ، وسار . . . لا يعرف له طريقاً ، ولا يقصد وجهة معينة . . كان قد ترك زوجته وابنه للقدر يصنع بهما ما يشاء ، بعد أن يئس . . فقد طوّف ما طوف طول النهار فى الأسواق والطرقات ، يعزف على مزماره ويعزف ... لم يعطه أحد شيئاً . . فكيف يعود إلى بيته ؟ وماذا يقول لزوجته وولده وهما ينتظران الدراهم المعدودات التى يجود بها من يجودون عليه أو من يطربهم عزفه كما يحب أن يتصور . .

وظل سائراً ، يصعد به الطريق فى بعض الأماكن ويهبط به فى أماكن أخرى ، حتى وصل فى صعوده إلى قمة جبل عال ، وكان قد تعب وأنهكه طول المسير ، فجلس يستريح ، وتناول المزمار . . مؤنسه الوحيد ومفرج كربه ، وراح يرسل أنغامه الحزينة فى شعاب الجبل ، واندمج فى عزفه وحزنه حتى غاب عن الوجود ، فلم يشعر بما حوله ، ولم ير الثعبان الكبير الذى أطربه العزف فزحف نحوه واستقر أمامه يهز رأسه فى طرب ونشوة . .

وظل « عبدون » يعزف ، والثعبان يسمع ويطرب . . حتى تعب فمه من النفخ فى المزمار فكف عن العزف ، ونظر أمامه فرأى الثعبان ، فلم يجزع منه بل على العكس شعر بالارتياح إلى منظره المسالم الطروب . .

وقارن بينه وبين الناس الذين كانوا يضيقون به ويطردونه أحياناً بدعوى أنه يزعجهم بمزماره وهم فى الحقيقة يتهربون من منحه وإعطائه شيئاً يستعين به فى رزقه وحياته هو وأسرته ، وتذكر ولده وزوجته وما عسى أن يكونا عليه من الجوع والحزن لعدم عودته إليهما ، فبكى . .

ولم يشعر « عبدون » إلا والثعبان يرمى إليه بدينار . . دينار ذهبى . . ويزحف راجعاً حتى يختفى بين الصخور . .

أحس « عبدون » بمناظر الدنيا تتغير أمامه والأشياء تبتسم له ، كما أحس بطريق العودة يدعوه إليه . . العودة إلى بيته وزوجته وولده .

وجعل « عبدون » يذهب كل يوم إلى الجبل ، ويعزف ، ويأتى بدينار . .

شعر بكيانه كفنان وكإنسان له كرامته ، ولم تعد تشغله مشاغل العيش ، تلك الدراهم المعدودات التى كان يلف ويجول ويتعرض لإذلال الناس له وامتهان فنه من أجلها . . تفرغ من هموم الحياة الدنيا . . هموم الطعام والشراب والملبس والمسكن وما إليها ، وصار عاكفاً على الفن ، يحذقه ويفتن فى أساليب العزف .

جعل الناس يقصدون إليه بعد أن كان يقصد إليهم ، ولكنه لم يضق بهم كما كانوا يضيقون به ، لأنه فنان يحب الناس ولا يتصور الحياة السعيدة إلا بالتعاطف معهم .

وجاء إليه كثيرون يطلبون منه أن يحيى لياليهم ويبهج أفراحهم بعزفه ،

ويعرضون عليه لقاء ذلك الأموال الكثيرة ، ولكنه كان يرفض . . مكتفياً بالدينار الذى يناله كل يوم من الثعبان . .

وتوطدت العلاقة بينه وبين الثعبان . . علاقة صامتة تتخللها مشاعر متدفقة يعبر عنها « عبدون » بأنغامه وألحانه ، ويعبر عنها الثعبان بحسن إصغائه واهتزاز رأسه فى إيقاع منظم كان يعجب « عبدون » ويستثير فيه بواعث الإجادة والبراعة .

حتى مرض « عبدون » . . . وألزمه المرض الفراش ، فدعا ابنه إليه وحكى له حكايته مع الثعبان ، وطلب منه أن يذهب إلى مكانه على قمة الجبل ويأخذ المزمار ويعزف له .

أخذ الولد المزمار وقصد إلى المكان الذى وصفه له أبوه وجعل يزمر ، فخرج إليه الثعبان ومكث غير بعيد منه يستمع إليه . لم يشعر الثعبان بالطرب ، ولكنه تظاهر بالتأثر من العزف ، ثم رمى بالدينار إلى الولد وانصرف .

وكذلك فعل الولد والثعبان فى اليوم الثانى ، فلما كان اليوم الثالث طرأت للولد فكرة خبيثة . . قال فى نفسه : إن هذا الثعبان لابد وراءه كنز مملوء بالمال يحرسه ولابد أن باب الكنز هو ذلك الشق الذى يخرج منه ويعود إليه الثعبان . فلماذا لا أقتله وأستولى على الكنز ؟ . .

وضع المزمار جانباً ، وأحضر حجراً كبيراً وجعله فى متناول يده ، ثم أمسك بالمزمار وزمر . فخرج الثعبان وهو يتظاهر بالتأثر والطرب ، واستقر فى مكانه المعهود . . وفجأة قام الولد وأمسك بالحجر وقذف به

إلى الثعبان مسدداً إلى رأسه حتى يقضي عليه،ولكن الثعبان تنبه للحركة الغادرة فقفز . . وأصاب الحجر ذنبه فقطعه . . فأسرع الثعبان إلى الولد والتف حوله ، فاستحال الولد جثة هامدة .

مضت أيام ولم يعد الولد إلى أبيه ، فخرج يبحث عنه ، وذهب إلى الجبل فوجد ابنه جثة ممزقة . . فبكى . . ثم أخرج مزماره وراح يبثه أحزانه ويوقع عليه أشجانه .

خرج إليه الثعبان وأمره أن يكف عن العزف ، وقال له :

ـ يا صديقي ، إن ابنك حاول قتلي وقد قطع ذنبي . إنه ولد غادر ، لم يقبس منك موهبة الفنان ، ولم يرث عنك إنسانية الإنسان . .

فقال « عبدون » وقد عرف حقيقة الأمر :

ـ لقد لقي جزاءه، وإني آسف أيها الصديق ، وأنا الآن حزين ، لا على فقده ، بل على ما أصابك جزاء نعمتك وفضلك !

ـ لا تحزن يا صديقي ، فما قدر الله وقع ، أنت فقدت ولدك وأنا فقدت ذنبي ، ولن تنسى ولدك ، ولن أنسى ذنبي .

ثم قال له :

تعال معي وخذ من هذا الكنز ما تريد ، واذهب لحالك ، ولتكن علاقتنا وصداقتنا في عداد الذكريات .

وأبى « عبدون » أن يأخذ شيئاً من المال ، واكتفى بقوله للثعبان :

« وداعاً يا صديقي . . وداعاً إلى الأبد » . .

وعاد يرسل من مزماره الألحان الحزينة . . .

نطاطة وحطاطة

كانت « نطّاطة » قد يئست من زوجها الكسلان « حطّاطة » بعد أن حاولت كثيراً أن تحمله على العمل وترك الكسل ، فكانت كلما أيقظته فى الصباح ليذهب إلى عمله تثاءب وطلب منها أن تدعه نائماً ، فإذا ألحت فى إيقاظه شتمها وهددها مرة بالضرب ومرة بالانتحار ، كى يستريح منها ومن متاعب الدنيا . . فلم تجد بدّاً من أن تباشر هى العمل . فكانت تذهب إلى الحقل وترعى الماشية بنفسها ، ثم تعود إلى البيت حيث تجد « حطاطة » لا يزال يغط فى نومه لا يقوم منه إلا ليأكل ويشرب ثم ينام .

وظلت على هذه الحال تكدُّ وتكدح وترهق نفسها بالعمل ، حتى ضعفت واعتلت صحتها وخاصة بعد أن تقدمتْ بها السن وكثرت العيال وزادت الأعباء ، فاضطرت أن تعيد محاولتها مع « حطاطة » عسى أن يقلع عن كسله ويشاركها العمل والكفاح من أجل العيش . قالت له ذات صباح بعد أن جهدت فى إيقاظه :

— قم ياحطّاطة ودع الكسل .

— اتركينى ياامرأة فى حالى .

— كيف أتركك وأنا قدتعبت وضعفت حتى صرت غير قادرة على العمل ؟

— هل قلت لك اعملى واتعبى نفسك . .

— من أين نأكل وكيف نعيش إذا لم أعمل أنا ولم تعمل أنت ؟ .

— يرزقنا الله . .

— ولكن الله أمرنا بالعمل . وكيف يرزقنا ونحن نائمون ؟

— يا امرأة دعينى . . قلت لك . .

ــ لن تجد أكلاً ولا شرباً .

ــ لا أريد .

ــ والعيال ؟

ــ لن أرد عليك أيتها المجنونة ! ! !

ولكن « نطّاطة » استمرت فى محاولة إقناع زوجها الكسلان وحثه على العمل حتى ضاق بها ذرعاً وأراد أن يسكتها عنه فكان يخرج متظاهراً بأنه سيعمل .

حتى عاد مرة إلى المنزل . يحمل لفافة ، فدهشت « نطّاطة » وقالت له :

ــ ماذا معك يا حطّاطة؟ هل أحضرت طعاماً ؟ شكراً لك يا زوجى العزيز .

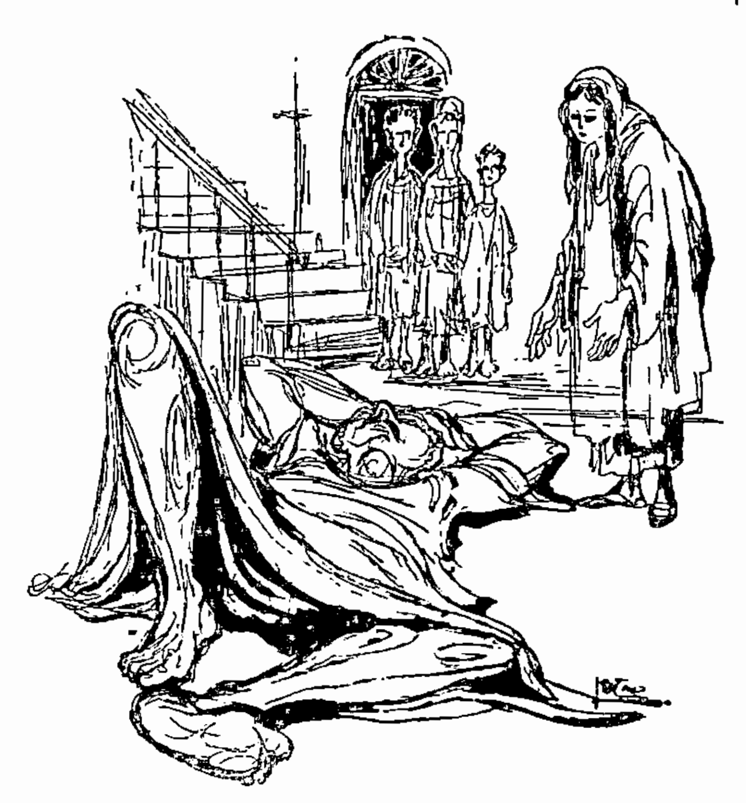
ولكن حطاطة لم ينبس ، ووضع اللفافة جانباً وهو يتأفف ويجفف عرقه . . .

فاقتربت منه زوجته فى حنان وقالت لتسرى عنه :

ــ لا عليك يا عزيزى . . . إنك تعبت لأنك لم تعمل من زمن طويل فتعود جسمك الراحة . وشيئاً فشيئاً تتعود العمل وتتحمل الجهد . . بل إنك ستشعر بلذة السعى عندما تجنى ثمرة كدك وترى أولادك يتمتعون بما تجلب لهم من الرزق والخير . . .

ولكنه ظل على صمته لا يريد أن يجشم نفسه عناء الكلام . . فتناولت « نطاطة » اللفافة وفكتها فوجدت بها قطعة من نسيج الكتان وقطعة من الصابون . . .

ــ قالت مندهشة ! ! !



ـ ما هذا يا حطاطة ؟ ! !

ـ كفنى ! !

ـ كفنك ؟ ! وهل مت ؟ ! !

ـ نعم سأموت . . استعدى لجنازتى ! !

ـ ماذا جرى لك يا حطاطة . . هل تناولت سمًّا أو لدغتك عقرب أو شىء مثل هذا ؟

قل لى ماذا جرى . . ؟

ـ لم أعد أحتمل العيش معك وأنت توقظيننى من النوم كل صباح .. لقد يئست من الحياة .

قال « حطاطة » ذلك وارتمى على الأرض . . . وراحت « نطاطة » تناديه وتهزه فلم يجبها ولم يتحرك . . فجعلت تصرخ وتولول ، فسمعتها إحدى جاراتها ، فجاءت على عجل ، وسألتها عما جرى ، فحكت لها ما وقع وأضافت قائلة :

ـ . . . هذا وأنا أشك فى أنه مات تماماً . . لابد أنه يتظاهر بالموت . . .

ـ يتظاهر بالموت ؟ ! !

ـ أنت لا تعرفينه ، إنه يفضل كل شىء حتى الموت نفسه على أن يبذل أى جهد أو يقوم بأى عمل . .

ـ طيب ، دعيه يمت . .

أدعه يموت ؟ !

ـ انتظرى يا نطاطة يا أختى ما سأقوله لك . . . استمرى فى صياحك وتظاهرى بالحزن وليتم كل شىء كأنه مات حقيقة .

ـ وبعد ؟

ـ سأخبرك بما تفعلينه بعد ذلك ، وما عليك إلا أن تأخذى معك قطعة من النحاس تكون معك عند القبر .

وغُسِّل «حطاطة» وكفن ووضع فى النعش ، وتمت مراسيم الجنازة المعتادة . .

وبعدما دفن فى القبر عاد المشيعون ، ولم يبق هناك إلا « نطاطة » وجارتها . وكانتا قد اتفقتا على ما تعملان .

* * *

وقفت الجارة أمام القبر ، وقبعت الزوجة خلفه ، ودقت الأولى قطعة النحاس بكل قوتها وهى تصيح بصوت قوى نفاذ :

« أيها الموتى . . هبوا واسمعوا ما أقول . . لقد أرسلنى الملك إسرافيل لأوقظكم وأخبركم أن جانباً من حائط جهنم قد تهدم ، وعليكم أن تعيدوا بناءه» .

وعندما سمع حطاطة ذلك النداء دق قلبه وقال فى نفسه : « العمل ورائى . . ورائى . . هربت منه فى الدنيا ، وهاهو ذا ينتظرنى فى الآخرة . . وأين ؟ فى جهنم . . يا للعذاب ! ! ! »

وبعد برهة ردت الزوجة بصوت مبحوح كأنه آت من العدم : « لقد عملنا فى الدنيا وشقينا بما فيه الكفاية ، فهل نشقى فى الآخرة كذلك » . .

دقت الجارة النحاس دقتين ثم أجابت :

« من كانوا يعملون فى الدنيا لا يشملهم أمر سيدى إسرافيل ، فليستريحوا وليناموا هادئين ، وعلى الذين كانوا فيها كسالى بناء حائط جهنم ، وليعمل كل منهم بقدر ما توانى عن العمل فى الدار الفانية » .

اضطرب « حطاطة » وجزع جزعاً شديداً ، وقال لنفسه :

« والله وقعت يا حطاطة . . وجاءت وقعتك فى جهنم . . يا ليتنى كنت من العاملين فى الدنيا ، ليتنى أرجع إلى الحياة فأعمل » .

ثم تنبه لنفسه وقال :

« ولكنى فى الحقيقة لم أمت ، إننى تظاهرت بالموت فقط ، أى إن الفرصة لا تزال باقية أمامى، ولكن كيف أخرج من هذا القبر؟ لقد رأيتهم يسدون فوهة القبر بحجر كبير ، هل يمكننى أن أزحزح هذا الحجر ؟ لا .. إنه يتطلب جهداً لا قِبَل لى به، فلأبق فى مكانى وليكن ما يكون » .

وجاءه الصوت المبحوح يقول كأنه آت من العدم :

« هيا أيها الكسالى، وإلا حملتكم زبانية جهنم على الأسياخ المحماة ! »

عاوده الفزع فجعل يبكى ويقول :

« الزبانية . . الأسياخ المحماة . . ويلك يا حطاطة ! قم . . أسرع . . أتكون زحزحة الحجر أشد من هول جهنم ؟ ألست تريد أن تعود إلى الحياة لتعمل ؟ فهيا مرن نفسك فى دفع الحجر والخلاص من هذا القبر » .

واستجمع « حطاطة » قواه وعالج الحجر حتى استطاع أن يزيحه من مكانه على فوهة القبر وخرج .

* * *

دق « حطّاطة » باب منزله ، فردت زوجته قائلة :

ــ من ؟

ــ أنا حطاطة .

ــ حطاطة ؟ ! ! حطاطة مات ودفنّاه .

ــ افتحى يا نطاطة . أنا دفنت الكسل وجيت . .

خاتم المنى

كانت « أم الخير » فتاة صغيرة مات أبوها ، ثم ماتت أمها ، فعاشت بمنزل عمها مدة لاقت فيها الشقاء والعذاب من زوجته ، وحاولت أن تشكو إلى عمها ، ولكنه لم يصغ إليها . .

ولما لم تجد أحداً يعطف عليها خرجت هائمة على وجهها دون أن تعرف إلى أين تذهب . .

وبعد طول السير وجدت نفسها فى مكان به بعض الأشجار ، ورأت شجرة نبق كبيرة فتسلقتها وصعدت حتى جلست على فرع كبير بها ، وجعلت تأكل من ثمرها الصغير ، وكان الجوع قد نال منها كل منال .

واستراحت « أم الخير » إلى مكانها فى شجرة النبق ، فأقامت بها لا تنزل منها إلا فى الليل كى تشرب من غدير قريب تتسلل إليه وتعود منه محاذرة أن يراها أحد .

وكان هذا المكان قريباً من مدينة يجلس على عرشها ملك عظيم الشأن اسمه « النمير » وكان لهذا الملك ابن شجاع نشأ على الفروسية والصيد وركوب الخيل ، ولكن لما مات الملك وصار أمر البلاد إلى ابنه لم يجد « ابن النمير » فراغاً للهو والتمتع بجولات الصيد كما كان فى عهد أبيه ، لأنه حمل عبء الرعية وشعر بالمسئولية ، وقد وجد فى تفقد أحوال الناس ورعاية شئونهم لذته ومتعته . .

وذات يوم كان يسير متخفياً كى يقف على الأحوال بنفسه ، فرأى « أم الخير » جالسة على الشجرة ، فبهره جمالها ، وحاول أن يسترعى انتباهها فلم تلتفت إليه وبدت كأنها لا تراه . .

ونظر « ابن النمير » فرأى كوخاً تجلس أمامه امرأة عجوز ، فقصد إليها وقال لها :

ــ يا خالة ، من هذه البنت الجالسة على تلك الشجرة ؟

ــ والله يا ابنى . . أنا شاهدتها على الشجرة عدة مرات ، وكل مرة ترانى فيها تحول نظرها عنى ، ولما كلمتها لم ترد على . . وعلى كل حال . . انتظر . . هل تريد أن أجعلها تهبط من الشجرة ؟

ــ نعم يا خالة . . ولك جائزة .

ــ من غير شىء يا ابنى ، بارك الله فى شبابك . .

وأحضرت العجوز بعض الطعام وأوقدت ناراً لطهوه قرب الشجرة ، ووضعت القدر على النار مقلوبة . . فصرخت الفتاة قائلة :

ــ ليس هكذا يا خالة توضع القدر ؟

ــ وكيف إذن يا ابنتى ؟ هلاَّ نزلت وعلمتنى كيف أضعها ؟

نزلت « أم الخير » من على الشجرة . . وفى الحال اختطفها « ابن النمير » وطار بها على ظهر جواده . . وذهب بها إلى قصره . وكان فى أثناء ذلك يلاطفها ويطمئنها حتى اطمأنت إليه ، وحكت له حكايتها . فأبدى لها حبه ورغبته فى الزواج منها .

ولما رأتها أمه وعرفت عزمه على أن يتزوجها ، أبدت اشمئزازها منها وعارضت فى هذا الزواج قائلة لابنها :

– كيف تتزوج من بنت وجدتها فى الطريق لا تعرف لها أهلا ولا أصلا ؟ أنت ملك ابن ملك ولا يليق بك أن تتزوج إلا بنت ملك عظيم.

– يا أمى . . إن « أم الخير » بنت طيبة وجميلة وقد تعلقت روحى بها ولن تكون لى سعادة بدونها .

ولما رأت الأم إصرار ابنها وافقت على زواجه من « أم الخير » . . . وافقت كارهة ، وأضمرت الشر للفتاة المسكينة . .

ومرة خرج « ابن النمير » فى رحلة من رحلاته بعد أن أوصى أمه خيراً بزوجته .

ورأت المرأة أن الفرصة سانحة للتنكيل بالفتاة ، فأمرت بسجنها فى حجرة مظلمة ، ومنعت عنها الطعام والشراب . وفى اليوم الثالث طلبت الفتاة من أحد حراسها أن يسقيها ، فأخذته الشفقة عليها وأحضر لها ماء وطعاماً.

وكانت المرأة تريد أن تموت « أم الخير » من الجوع والعطش ، فلما علمت أن الحارس أطعمها وسقاها أمرت بقتله ، وجاءت بالفتاة وقطعت يديها ورجليها وشوهت وجهها وألقت بها فى الطريق .

وتساقطت الدموع من عينى « أم الخير » ، وسقطت دمعة ساخنة على شىء بجوارها فى الطريق ، فلما أحس هذا الشىء بالدمعة الحزينة تكلم قائلا :

ــ أنا يا سيدتى خادمك . . أفعل ما تأمرينى به . .

ــ ومن أنت ؟ !

ــ أنا خاتم المنى . . تمنى واطلبى ما تشاءين تجديه بين يديك !

ــ ليس هناك ما هو أغلى من الصحة ، أعد إلىّ أعضائى المقطعة وأرجعنى كما كنت ، واجعلنى فى قصر به حديقة غناء فيها أنواع من الطير والحيوان ، واجعل له باباً مغلقاً لا مفتاح له . لا أخرج منه ولا يدخل علىّ أحد .

ــ تذكرى يا سيدتى حب الأمير لك ، وما فعله الحارس الطيب من أجلك ، فليس كل الناس أشراراً .

ــ أريد أن أبعد عن الناس جميعاً ، حتى لا يلحقنى شر الأشرار منهم .

ــ لك ما تريدين يا سيدتى .

وفى الحال وجدت نفسها فى القصر الذى تمنته . . ووجدته قصراً عظيما لم تر مثله .

ومرت الأيام ، ورجع ابن النمير من رحلته ، فاستقبلته أخته وأخبرته ــ كما قالت لها أمها ــ بأن أمه قد توفيت فى غيابه وأن زوجته حامل .

وكانت أمه قد تنكرت فى زى زوجته ، وقالت له إنها تشتهى الخيار ، وطلبت منه أن يحضره لها من قصر الأميرة الجديدة التى حلت على القرية فى غيابه ، ولما سأل عن هذه الأميرة من عسى أن تكون ، أجيب بأنها أميرة مجهولة لا يعرف عنها أحد شيئاً ، لأنها لا تختلط بالناس وتعيش فى عزلة داخل قصرها .

أرسل ابن النمير أحد خدمه إلى قصر الأميرة ليسألها بعض الخيار لزوجته الحامل . فأجابت الأميرة بالرفض . ولما سمع الخادم صوتها وعرفها هم أن يخاطبها قائلا : يا سيدتى . . ولكنها أمرت خاتم المنى أن يخرس لسانه حتى لا يستطيع الكلام ولا يقول لسيده شيئاً .

وعاد الخادم أخرس لا يستطيع أن ينبس ببنت شفه ، فأرسل ابن النمير خادماً آخر ، فتكرر معه الموقف ، وأرسل ابن النمير خادماً ثالثاً ورابعاً وخامساً . . . وحدث للجميع ما حدث للأول .

سار ابن النمير بنفسه إلى قصر الأميرة ، ووقف على الباب يقول :

ـ يا سيدتى الأميرة . . إن زوجتى حامل وقد طلبت الخيار ، وليس فى مدينتنا خيار فى هذا الوقت ، فهلا تكرمت علينا بشىء منه ؟

فأجابته من وراء الباب :

ـ إننا يا سيدى لا نعرف أحداً وليس عندنا شىء مما تطلب .

وشك فى صوتها ، فأراد أن يطيل الحديث معها فقال لها :

ـ بالله عليك أيتها الأميرة . . لماذا أنت محتجبة عن الناس ؟

ـ هذا شأنى وحدى يا سيدى .

ـ نعم ، هو شأنك ، ولكن ألا تشعرين بالوحشة والملل من هذه الوحدة ؟

ـ بالعكس . . إننى أجد أنسى وراحتى فى هذه الوحدة ، وحسبى ما لقيت من الناس ومن شرورهم .

– ألم تلقى خيراً من أحد ؟

– لقيت ، ولكنه كان كالبرق فى وسط السحاب ، لم يلبث وميضه أن ذهب وأعقبه الأذى والإذلال .

– ولكن الإنسان بالصبر والكفاح يستطيع أن يتغلب على ما يتهدده ويقلق حياته .

– إننى يا سيدى فتاة ضعيفة لا حول لها ولا قوة .

وكان ابن النمير قد تحقق من صوتها فى خلال هذا الحديث حتى لم يعد لديه شك فى أنها زوجته « أم الخير » وهنا قال لها :

– إننى مستعد أن أبذل فى حمايتك والدفاع عنك كل ما فى وسعى ولو كلفنى ذلك حياتى . . ولن أبعد عنك بعد ذلك أبداً .

وشعرت « أم الخير » بما فى كلمات « ابن النمير » من إخلاص وحب ، فأحست بالاطمئنان إليه ، ولكنها أرادت أن تقاوم هذا الشعور ، فهمت أن تأمر خاتم المنى بأن يخرس الأمير ، ولكنها وجدت نفسها تأمر الخاتم أن يجعل لباب القصر مفتاحاً . .

فاطمة السَّمحة

كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان بإحدى قرى الغرب فتاة اسمها « فاطمة » امتازت بطيبة القلب وبجمال طبيعى لم تحظ به واحدة من بنات القرية . حتى أصبحت معروفة فى قريتها بفاطمة السمحة . . .

وكانت فاطمة مطمع شباب القرية ، كل منهم يتمنى أن تكون له زوجة . وقد اعتنت بها أمها منذ الصغر ، وكانت تخشى عليها من « عين الحسود » فلم تكن ترسلها لجمع الوقود أو لإحضار الماء من بعيد ، كما كان يفعل فتيات القرية .

وقد سمع بها فارس من قبيلة مجاورة للقرية اسمه « ابن النمير » فحاول أن يراها ، فكان يخرج إلى الأماكن التى يجمع منها فتيات القرية الوقود أو يحضرن منها الماء ويسأل الفتيات عنها ، فيقلن له : وماذا تريد من فاطمة السمحة ؟ إنها لا تخرج أبداً ، فأمها تحجزها فى البيت خوفاً عليها أن تصيبها عين حاسد . . .

وكان ابن النمير يكلم الفتيات وكأنه مغمض العينين أو مسحور — لا يلتفت إلى ما فى أية واحدة منهن من جمال ، لأنه كان مشغول القلب بفاطمة وبما سمع من أوصافها فلا يريد أن يرى حسناً فى غيرها . . . ينطبق عليه قول الشاعر :

« والأذن تعشق قبل العين أحياناً »

وحاولت فتيات القرية عدة مرات أن يصطحبن فاطمة فى غدواتهن وروحاتهن ، ولكن أمها كانت ترفض ، حتى استطعن مرة — وكانت

فاطمة فى نقاهة من حمى أصابتها – أن يقنعن أمها بخروجها كى تتنزه وتشم الهواء وتستعيد صحتها وعافيتها .

ورأى « ابن النمير » فاطمة بين الفتيات، فزاد افتتانه بها وكاد يجن من حبها ، ولكنه عبثاً حاول أن يكلمها أو حتى تلتقى عيناه بعينيها ، فقد كانت تغطى وجهها وتنظر إلى الأرض من شدة الحياء .

وتحدث « ابن النمير » بحبه لفاطمة السمحة . . . وشكا من إعراضها عنه وأنها لا تكلمه ولا تنظر إليه ولو كأى بنت من البنات. فقالت له امرأة عجوز :

– « اطمئن... سأجعلها تكلمك ويكون كل شيء على ما تحب » .

فقال لها وهو يشعر كالغريق امتدت إليه يد النجاة :

– لك عشر بقرات إن كلمتنى فاطمة .

وفى المرة الثانية التى خرجت فيها فاطمة مع الفتيات لقيتهن العجوز وتقربت إليهن بمزاحها وكلامها المعسول ، وخصت بالحديث فاطمة السمحة ، ولكن هذه ما كادت تسمع من فم العجوز اسم « ابن النمير » حتى ظهر على وجهها الغضب والخوف ، فأشاحت وذهبت بعيداً عنها ...

كانت تشعر بمزيج من الارتياح والخوف . . . إنها لا تكره « ابن النمير » ، فقد استرقت إليه النظر دون أن يشعر فخفق قلبها . . . ولكنها تخاف من أمها ومن أهلها ، بل هى تخشى من هؤلاء الفتيات أن يذعن عنها أى شيء ، والبنات غيرتهن عمياء . . .

وفعلاً امتدت ألسنة البنات بالهمس . . . وتحدث بعضهن عن حب



« ابن النمير » لفاطمة السمحة ، وبلغ الحديث مسامع أهلها ، واستشاط شباب قبيلتها غضباً ، وأرسلوا إلى « ابن النمير » يتوعدونه ، وتحرش به بعضهم ،

واشتبك واحد منهم مع واحد من أقاربه .

و«ابن» النمير فارس شديد شجاع مرهوب ، لم يكن ليسكت على أى استفزاز أو يعبأ بأى تهديد ، لولا أن الذين يهددونه ويستفزونه هم أهل فاطمة السمحة ، فلم يكن أمامه إلا أن يتحلى بالحلم والصبر .

أما فاطمة فقد ظلت بعد ذلك فى البيت لا تخرج منه ، حتى اضطر أهلها إلى الارتحال من القرية لأنها أجدبت ، فقد انقطع عنها المطر وجف الزرع وهلك كثير من الماشية بسبب الجوع والعطش .

ارتحلت القبيلة وسارت تقطع الفيافى والجبال . وكانت فاطمة تركب فى هودج مع البنات . وذات يوم هبت عاصفة شديدة أظلمت الكون وجرف تيارها كل شىء حتى لم يعد أحد قادراً على أن يسير فى اتجاه معين ، بل كانت الريح الهوجاء تطيح بهم إلى حيث تشاء .

ولما هدأت العاصفة وظهرت معالم الكون وجد البنات — ومعهن فاطمة — أنفسهن فى مكان لم تشاهده أعينهن من قبل . ولمحن عن بعد ناراً تشتعل فاتجهن نحوها ، فلما اقتربن منها وجدن بجوارها رجلا طاعناً فى السن بلغ من الكبر درجة لا يستطيع معها الحراك ، فتقدمت إليه البنات وطلبن منه أن يدلهن على الطريق حتى يلحقن بأهليهن ، فنظر الرجل العجوز إلى فاطمة وقال لها :

— إننى أخشى عليك يا بنية من قطاع الطريق ، فأنت جميلة فاتنة ، وعندما يرونك على هذا الجمال لن يتركوك .

فقالت له فاطمة :

ــ وماذا أفعل يا عم ؟

ــ عليك أن ترتدى جلد رجل عجوز !

دهش البنات من كلام الرجل وقلن له :

ــ جلد رجل عجوز ؟ ! وأين هو ؟

ــ اسمعن يا بنياتى ولا تعجبن . . . أنا أستطيع أن أتخلص من جلدى . . .

ــ كيف تتخلص من جلدك ؟

سكت الرجل برهة ثم أشار إلى شجرة قريبة مجردة من الأوراق وقال لهن :

ــ اقطعن فرعاً من هذه الشجرة واضربن به على رأسى سبع مرات .

ففعل البنات ما أشار به الرجل الكبير ، فتخلص من جلده ، ولبسته فاطمة السمحة ، فبدت كأنها رجل عجوز !

وسارت الفتيات فى طريقهن لايدرين إلى أين ينتهى بهن المسير ، وإذا هن يرين من بعيد فرساناً يمتطون خيولا مقبلين نحوهن : فذعرن ، وجرت كل واحدة منهن فى ناحية تحاول الاختفاء والهرب ، وتمكن الفرسان من أخذ بعضهن ، ولم يعبأوا بفاطمة التى تظهر فى شكل رجل شيخ قد حطمته السنون . . . وشرعوا فى السير ، فقالت إحدى الفتيات كأنها تحدث نفسها :

« شالوا العوار وخلوا النوار »

وسمعها أحد الفرسان ، فتلفت يبحث عمن عسى أن يكونوا قد

تركوه ، فلم يجد غير شيخ مسن يختبئ وراء شجرة ، فاحتار فى أمره . . . أيكون هو « النوار » الذى تقصده الفتاة . . ولكنه أخذه بالرغم من مظهره الذى لا يغرى به .

كان الشيخ المسن هو فاطمة السمحة ،وقد عرفت فى الفارس الذى أخذها « ابن النمير » فسارت معه مستسلمة .

وكل ابن النمير إلى الرجل العجوز رعى الغنم ، وكان يحس فى قرارة نفسه بالشك فى أمره ، فكان يأتى إليه ويسأله هل هو فى حاجة إلى شيء ، وكان أحياناً يراقبه من بعيد دون أن يراه . . . وفى إحدى هذه المرات نظر فرأى منظراً عجبا ! رأى الرجل العجوز يضرب على رأسه بفرع شجرة سبع مرات ، فيبدو فتاة فى ريعان الشباب تتدفق حيوية وجمالا . . . جمالا لم ير له مثيلا إلا . . . وتذكر حبيبته وفاتنته فاطمة السمحة . . . إن هذا الحسن الرائع يشبه حسنها ! فزاد عجبه، وسر بذلك سروراً عظيما .

عاد « ابن النمير » دون أن يظهر نفسه للفتاة،ثم رجع بعد برهة فرآها قد تحولت إلى شكل الرجل العجوز ، فأقبل عليه وجعل يحادثه فى شئون مختلفة متبسطاً معه . . . حتى قال له :

ــ أتراهنى على أن أحمل بأسنانى هذا الخروف السمين . . . ؟

فقال له العجوز وهو مأخوذ بظرف ابن النمير ومشارك له فى مرحه :

ــ وعلى أى شيء يكون الرهان ؟

ــ إذا لم أستطع حمل الخروف بأسنانى فلك أن تطلب منى ما تشاء

وأنا أفعله ، وإذا حملته طلبت أنا منك ما لابد أن تفعله .

قال العجوز وهو متورط فى جو المداعبة والمرح :

ـ قبلت :

وأسرع «ابن النمير» فحمل الخروف بأسنانه كأنه ريشة . . . وسار به مسافة ورجع ثم أنزله إلى الأرض وهو يقول ظافراً :

ـ هيا أيها الرجل العجوز . . . نفّذ ما أطلبه منك .

ـ ماذا تريد ؟ !

ـ أن تضرب على رأسك بهذا الفرع سبع مرات . . .

ذهلت فاطمة ، وأدركت أنه عرف سرها ، فقالت له فى محاولة يائسة :

ـ هلا أعفيتنى أيها الفارس من هذا الشرط ؟ ...

ـ لا . إنى متمسك به .

ولما رأته مصرًّا لم تجد مفرًّا من أن تجيب طلبه . . . وبدت أمامه على حقيقتها . . فاطمة السمحة الحبيبة الجميلة الفاتنة . . .

فصاح مسروراً :

ـ فاطمة السمحة !

ـ أنا يا ابن النمير . . .

ـ أنت حبيبتى وأنا أريد الزواج منك .

ـ لا مانع لدى ، ولكن هل تقبل شرطى كما قبلت شرطك ؟

ـ نعم ، أقبل وأنفذ كل ما تريدين .

ـ أن تذهب بى إلى أهلى وتخطبنى منهم .

فكر « ابن النمير » برهة ، وساوره الشك فى أن يقبل أهلها زواجها منه ، ولكنه لم يجد بدًّا من أن يفى بما وعد ، وليكن الأمر ما يكون . . .

وسار بها فى إثر أهلها أياماً وليالى حتى وصلا إليهم فى أحد المراعى التى نزلوا بها . وشرح لهم كل شىء ، كما حكت لهم فاطمة قصتها .

شكر أهل فاطمة ابن النمير على مروءته ووفائه ، وتشاوروا فى أمر زواجه من ابنتهم ، ثم استقر رأيهم على هذا الزواج .

وأقيمت الأفراح ، وذبحت الذبائح ، ورقصت البنات ، وعاش الزوجان الحبيبان فى تبات ونبات .

سرّ الجمل

كان فى قديم الزمان سلطان يدعى عثمان ، لم يرزقه الله بولد يملأ عليه البيت بهجة وسروراً ويرث ملكه من بعده . . لهذا تزوج كثيراً ، وكانت زوجاته لا ينجبن إلا البنات ، وكان كلما وضعت إحداهن بنتاً يقتل الزوجة والبنت والداية التى تولدها . .

وحملت إحدى زوجات السلطان ، ولكنها كانت تشعر بالقلق والخوف ، تخشى أن يقتلها السلطان إذا لم تنجب ولداً ، فظلت تدعو الله كل صباح ومساء وتقول :

« يا رب ارزقنى بمولود ذكر ولو كان فى صورة جمل ! »

وحقق الله دعاءها فوضعت مولوداً ذكراً فى صورة جمل . وفرح السلطان بالجمل لأنه ذكر . .

عاش الجمل فى قصر والده السلطان عثمان بين الزهور والعطور مدللاً منعماً تحوطه العناية والرعاية . . إلى أن غضب فى يوم من الأيام ورفض النطق والكلام فأحضر له والده السلطان جميع أطباء المدينة ليعالجوه ، فأخفقوا جميعاً أمام إصراره على عدم النطق . ولكن أحد الأطباء نصح والده بأن يزوجه .

وكان للسلطان عثمان أخ له ثلاث بنات جميلات ، فخطب البنت الكبيرة للجمل . .

وزفت البنت إلى الجمل ، وانصرف الناس وتركوهما وحدهما .. ظلت البنت جالسة فى سريرها ترقب الجمل وهو لا يتكلم ، ثم كلمته فلم يرد ، واستمرت تحاول الحديث معه ، ولكنه ظل ساكناً لا ينطق . وأخيراً قالت :

« أهلنا من شدة ما غضبوا مننا زوجونا للجمال ! »

وعندئذ قام الجمل وضربها برجله ضربة قضت عليها . . وفى الصباح جاء السلطان ووزراؤه ، فوجدوا البنت ميتة فحملوها ودفنوها . .

ثم زوجوه بنت عمه الثانية ، فحدث لها معه ما حدث لأختها الكبرى ، وذهبت ضحية لضربة قاتلة من رجله .

وأخيراً زوجوه بنت عمه الثالثة الصغيرة ، وكانت ذكية العقل رقيقة الطبع صافية القلب . وعندما صارت مع الجمل فى ليلة الزفاف جعلت تناجيه بأرق الألفاظ وتعبر له عن الحب والإخلاص ، فبادلها المودة والكلام .

وفى منتصف الليل كانت البنت راقدة على سريرها مستيقظة كأنها نائمة . فرأت الجمل يتغير شكله إلى هيئة ملاك جميل . . وأخذ يسجد لربه ، ونوره يسطع فى الحجرة . .

وفى الصباح تحدثت معه بحديث رقيق ، وسألته عن حقيقته وسره ، فقال لها :

« يا ست الحسن والجمال ، لا تسأليني إذا أردت بقائى معك ، وإذا علم أحد بحقيقتى وعرف سرى فلن ترونى بينكم لأنى سأذهب من حيث أتيت إلى رب العالمين » . .

فوعدته بكتمان السر ما دام يريد ذلك . .

ولاحظت زوجة السلطان الأخرى ، وهى ضرة أم الجمل — لاحظت ما بين الجمل وست الحسن من الحب والمودة وأنه لم يضربها برجله مثل ما فعل بأختيها السابقتين . فغاظها ذلك ، لأنها تريد أن تشمت فى ضرتها بما يحدث لابنتها من الشر ، وخاصة أن السلطان خصها بحبه وعطفه بعد أن ولدت ذكراً . . فتطلعت إلى أن تعرف سر الجمل مع ست الحسن فتوددت إليها ، وأظهرت لها الحب . وذات مرة استدرجتها فى الكلام حتى أفضت إليها ست الحسن بسر زوجها الجمل . . وطلبت منها ألا تفشى السر . . ولكن زوجة السلطان رأتها فرصة سانحة لبلوغ مرادها والشماتة فى ضرتها والأمل فى نيل الحظوة لدى السلطان ، فأبلغته سر ابنه الجمل ، وهى تمنى نفسها أن يذهب الجمل ويختفى إلى الأبد ، تنفيذاً لما هدد به .

وفرح السلطان فرحاً شديداً عندما علم أن ابنه ليس جملا ، وإنما هو ملاك طاهر جميل ، وأخبر السلطان زوجته أم الجمل ، فشاركته فى الفرح والسرور .

وأراد الاثنان أن يتحققا بنفسيهما ، فلما جاء الليل اختبآ وراء نافذة الحجرة ، وشاهدا ولدهما فى صورة ملاك جميل يسجد لربه بخشوع ، بعد أن غفلت عنه العيون . . .

فلما كان الصباح انتشر الخبر بين الناس ، وعزفت الموسيقى فى قصر السلطان ، وأقيمت الحفلات والولائم . . ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ،

فقد اختفى الجمل الحبيب وغاب عن الأنظار ولم يعثروا له على أثر . .

شعرت ست الحسن والجمال بخطئها ، إذ أفشت سر زوجها الجمل ، فأساءت إليه وهو لا يستحق الإساءة ، وكانت النتيجة أن فقدته بعد أن تعلقت به وأحبته ، وندمت على ذلك أشد الندم ، وكانت تؤنب نفسها على أنها لم تستطع أن تحفظ السر ولا أن تحتفظ بالحبيب. وكان كل شيء حولها يبعث فى نفسها الذكرى المؤلمة ، فعزمت على أن ترحل من المدينة .

رحلت إلى مدينة أخرى هادئة ، واشترت حماماً جميلا ، جعلت أجر من يستحم فيه أن يقص عليها قصة ، فقد عرفت أن الحياة قصص ، وحياتها هى قصة واقعية أغرب من الخيال .

كان فى المدينة التى نزلت بها ست الحسن والجمال ثلاث بنات أخوات فقيرات لا يجدن قوت يومهن إلا بعد جهد ومشقة . .

كانت الصغرى تذهب إلى السوق وتشترى الخبز والزيت واللحم وبعض القطن ، وكانت الكبيرتان تغزلان القطن طول الليل ، وفى الصباح تخرج الصغيرة لتبيع الخيط وتشترى بثمنه الطعام وقطناً لليوم التالى . .

وفى صباح يوم من الأيام عزمت البنت الصغيرة على أن تذهب إلى الحمام الدافئ لتستحم وتنعش جسمها ، وتقص على صاحبته أية قصة من قصصها . ولكنها ضلت الطريق ووجدت نفسها تسير فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء . ثم سمعت صوتاً يغنى غناء حزيناً تختلط نبراته بالدموع ، ثم نظرت فرأت صاحب الصوت الشجى جملا جميلا . . فدهشت

وسارت وراءه على بعد وهو لا يشعر بها . وظل يسير وهى تتبعه حتى وقف على مكان وضرب الأرض برجله القوية فانشقت إلى شقين ، ودخل ، ودخلت البنت وراءه ، وسارت حتى وصلت إلى حديقة كبيرة بها النخيل والأعناب والأشجار والأزهار والخضرة والماء والسحر والجمال . .

ثم دنت البنت من شجرة تفاح وأرادت أن تقطف واحدة ، فقالت لها التفاحة :

ــ لا تقطفينى فلست سيدتى . . إن سيدتى وحدها هى التى تستطيع أن تقطفنى وتأكلنى . .

ــ ومن سيدتك ؟

ــ ست الحسن والجمال التى كان قد تزوجها سيدى هناك وهو على هيئة جمل . .

ثم سمعت الجمل ينوح بصوت حزين :

« ابكى يا طيور ويا زهور ويا بحور ويا جبال على ست الحسن والجمال التى أخلفت الوعد وأخلت بالعهد وسببت الوجد » . .

وفى اليوم التالى خرجت البنت عندما خرج الجمل إلى سطح الأض ، وذهبت إلى الحمام ، وقصت على صاحبته القصة الغريبة التى رأتها فى تلك الصحراء . ولما فرغت منها قالت لها ست الحسن والجمال : صفى لى هذا المكان ، فأنا الآن فى هيام . .

ثم ذهبت ست الحسن والجمال إلى ذلك المكان . . ودخلت عندما

ضرب الجمل الأرض برجله وانشقت ، واختبأت تحت شجرة كبيرة ، ثم قام الجمل وصاح يغنى بصوته الحزين :

« ابكى يا طيور ويا زهور . . »

ولكن لم تبك الطيور والزهور ، بل ضحكت من شدة ما فرحت ، وامتلأت الحديقة بالتغريد والعطور . . فعرف الجمل أن ست الحسن والجمال موجودة فى حديقته . .

وتقابل الحبيبان ، وفرح كل منهما بالآخر . وعادا إلى مدينة السلطان عثمان بعد أن أهدت ست الحسن والجمال الحمام إلى البنات الثلاث . وعاشوا فى خير وخيرين وثلاثة . .

الخضرا

كان بنو هلال فى طريقهم من نجد إلى تونس حينما نزلوا ضيوفاً على حاكم الصعيد « الماضى بن مقرب » وقد استقبلهم بالترحيب والاحترام وأكرمهم غاية الإكرام .

وكان على رأس بنى هلال أميرهم حسن بن سرحان وفرسانهم المشاهير أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم والقاضى بدير بن فايد .

وضربت القبيلة خيامها فى البادية القريبة ، وصار كبارها يترددون على قصر الحاكم تلبية لدعوته إلى ما يقيمه لهم من الولائم ، ويقضون معه الأوقات فى الأسمار وإنشاد الأشعار والعزف على الأوتار .

وذات ليلة بعد أن انصرف فرسان بنى هلال من مجلس حاكم الصعيد تقدم إليه أحد الأعوان وقال له :

– بلغنى يا ملك الزمان من بعض النسوان أنه توجد فى بنى هلال امرأة بديعة الجمال عديمة المثال فى الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق ، لا فى الغرب ولا فى الشرق ، اسمها « الجازية » كأنها الشمس الضاحية ، إن خطبتها منهم حصلت على السرور والانشراح ، لأن طلعتها تنعش النفوس والأرواح .

وأيد بعض الحاضرين كلام المتحدث ، وقالوا إن الجازية هى أخت الأمير حسن .

قال الماضى بن مقرب :

ـ يا قوم ، ما لهذه المسألة من وجه. فإنى أخشى أن يقولوا الماضى يطلب حق ضيافته لنا بنتاً من بناتنا . . وقال أحد الحاضرين :

ـ يا ملك الزمان ، الزواج بين الناس ما فيه شيء ولا هو عيب ، والذى يتقرب من الناس خير من الذى يبعد عنهم .

وكان الوزير ساكتاً يفكر ويتدبر ، فلما هم بالكلام التفتوا إليه باهتمام ، فقال :

ـ لقد سمعت أنا أيضاً بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية ، ولكنى أعلم أنهم لايزوجونها بأحد ولو كان من الملوك وأعاظم العمد ، فإذا كان لابد أيها الملك من ذلك فاطلب أولا فرس دياب « الخضرا » التى لا يوجد مثلها فى جميع الممالك ، وأنا أعلم أنه لا يعطيها ، لأن نفسه معلقة فيها . فإذا ما طلبت بعد ذلك يد الجازية خجلوا أن يردوا لك الأمنية الثانية .

وكتب ابن مقرب إلى الأمير حسن يطلب منه « الخضرا » . . ولم يفته فى آخر الرسالة أن يبدى استحياءه من هذا الطلب . .

وقرأ الأمير حسن خطاب ابن مقرب ثم أعطاه لأبى زيد ليطلع عليه وهو محتار ، وقال له :

ـ ما الرأى عندك ؟ أنا أعلم أن دياب لا ينزل عن « الخضرا » ولو هلك بنو هلال . .

ـ الرأى عندى أيها الملك المهاب أن أذهب أنا وأنت والقاضى بدير إلى منزل دياب ونطلب منه أن ينعم « بالخضرا » وندفع له عوضها ما يريد من خيول وأموال . . وإلا ساءت أحوالنا وانشغل بالنا . .

واستمع دياب إلى كلامهم فى دهشة وغضب . . فإنه يتوقع كل شىء ويتحمل مصائب الدنيا كلها إلا أن تفارقه « الخضرا » . . .

الخضرا التى رباها منذ الصغر وصارت جزءاً من حياته ، لا يشعر بسعادة ولا قوة كما يشعر وهو فوق ظهرها . . إنها حصنه المنيع إذا اشتدت أهوال الحرب ، وأنيسه الذى لا يمل إذا طال السفر ، وهى كانت رسوله إلى قومه يوماً وقد وقع فى خطر ، إذ احتال عليه الأعداء حتّى انتزعوه من سرجها وأسروه . . فعادت إلى منزله تجرى وتطلق صهيلا كأنه البكاء . فلما رأتها ابنته « وطفا » وسمعت صهيلها صاحت :

ـ يا ويلاه ! ! إن أبى فى شدة . . هذه « الخضرا » تنبئ بذلك .

وأسرع أبو زيد وباقى الفرسان ، وخلصوا دياب ، ونكلوا بالأعداء .

إن دياب الفارس العنيد لم يشغل قلبه بحب امرأة وهو يشعر أن الخضرا هى حبيبته . . وقد استفظع أن تطلب منه . . إنهم يرون أنها عنده مجرد فرس . . تغنى عنها فرس . . وكاد عقله يطير حين سمع الأمير حسن يعرض عليه أن يأخذ بدلها ما يريد من الخيول والأموال . . هل الخضرا شىء يباع ؟ ولكنه ملك نفسه وقال له :

ـ يا أمير حسن . . كل شىء عندى فى قبضة يدك إلا الخضرا،

ما فيها تفريط . . لأن روحى وروحها سيان . .

ونظر إليه خاله القاضى بدير ، وقال له معاتباً :

ـــ ما هذا الكلام يا دياب ! كيف نقصدك فتّردنا خائبين من أجل فرس ؟

ـــ يا خالى . . إن الخضرا أعز علىّ من البنين والبنات ، فخذوا غيرها ما تريدون من الخيول ، فأنا لا أعطيها لأحد ولو اجتمعت علىّ كل الخلائق .

وخرج الأمير حسن وأبو زيد والقاضى بدير من عند دياب يائسين ، وبينما هم يهمون بالركوب عائدين إلى مضاربهم رآهم غانم أبو دياب فعزم عليهم أن ينزلوا عنده ، وذبح لهم وأكرمهم ثم انفرد بابنه دياب وعاتبه عتاباً شديداً وأمره أن يجيبهم إلى طلبهم ويعطيهم الخضرا . . فلا يليق بالعربى أن يمنع ماله عن أهله وأصدقائه .

ولكن المشكلة كانت عند دياب أنه لا يعتبر الخضرا مالا . . يهديه الصديق إلى صديقه أو القريب إلى قريبه إنها كائن صديق حبيب . . وهو يحميها كما يحتمى بظهرها . . وقد تعود أن يحل المشاكل بالسيف ، وطالما صال وجال فى ميادين القتال وصرع الأبطال ، والويل لمن يقف فى طريقه أو يتحداه ولكنه اليوم يجابه موقفاً لا سبيل فيه إلى الضرب والطعان ، فهؤلاء أهله وعشيرته ، وابن مقرب مضيفهم الذى أنزلهم فى ملكه ولم يدخر وسعاً فى إكرامهم والإنعام عليهم وتوفير أسباب الراحة لهم ،

فاكتسب بذلك حق الصديق وحرمة الحليف المعاهد .

ولكن الخضرا . . هى الخضرا . . ويلك يا دياب ! ويا طالما ناداه الفرسان قائلين مهددين : ويلك يا دياب ! فكان يهجم ويرد لهم الويل . . أما الآن فإن كلمة « ويلك يا دياب » التى يقولها لنفسه ذات مذاق آخر . . مر !

أسرج دياب الفرس وقادها إلى الأمير حسن وهو يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم   أنا صاحب الهمات فى يوم الطراد
يابو على أنا مابخيـــل ولا ردى   ولا أنت للخضرا لديك مراد
لـــكن ستعطيها إلى ابن مقرب   أنا بالفرس أولى من الأبعـــاد
وما طاق قلبى يا أمير فراقهـــا   وربيتهـــا أحسن من الأولاد
أنا تحت أمرك يا أمير أبو على   فافعل بنـــا ما تفعـــل الأجواد

فشكره الأمير حسن قائلا :

يقول الهـــلالى أبو عـــلى   أجـــاد الفتى الزغبى أجـــاد
أجـــاد أبو وطفا دياب الغـــانم   أمـــيرها بين الأكابر ســـاد
وأنت عمرك ما بخلت بحـــاجـــة   وأنت دياب سيد الأسياد

واستدعى الأمير حسن رسولا وأمره أن يسير بالخضرا إلى الماضى ابن مقرب ، فتقدم إليها دياب وعانقها وهو يحس لأول مرة فى حياته بقلبه

يكاد ينفطر من البكاء المكبوت . .

دهش الماضى عندما وصلته الخضرا ، فلم يكن يتوقع أن يفرط فيها دياب ، وقد أحس بالندم لإحراج ضيوفه ، كما شعر بخيبة الخطة التى رسمها وزيره للوصول إلى « الجازية » . . وجعل القوم يهنئونه بهذه الفرس العربية التى لا نظير لها بين الخيل ، وهو غارق فى أفكاره ومشاعره . .

وبينما هو كذلك إذ وصله رسول من مكة يحمل خطاباً من أميرها « شكر الشريف بن هاشم » وفيه يقول له إن زوجته « الجازية » هجرته ورحلت مع أهلها بنى هلال إلى المغرب ، وأنه علم أنهم نزلوا عنده . ويرجوه أن يتوسط فى الصلح بينه وبين زوجته حتى ترجع إليه وإلى ابنهما « محمد » الذى يبكى لفراق أمه .

إذن فالجازية متزوجة وأم . . أم محمد . . على خلاف ما زعم له الوزير من أن أهلها لا يزوجونها أحداً ولو كان من الملوك . . ويل لهذا الوزير الغبى الذى أوقعه فى هذا الحرج وكاد يفسد بينه وبين أصدقائه بنى هلال .

وأراد الماضى أن يقوم بالصلح بين أمير مكة وزوجته «الجازية» ، وقبل أن يذهب إلى قومها جاءه سائس الخيل وأخبره بأن الخضرا لا تأكل ولا تشرب وأنها تصهل صهيلا حزيناً كأنها فقدت ولدها . . فأمر بإسراجها وإعدادها مع هدايا كثيرة وأرسلها إلى بنى هلال فى مضاربهم ، وكتب

كتاباً وأعطاه للرسول وفيه يقول :

يقول الفتى الماضى هو ابن مقرب   بدمع جرى فوق الخديد مداد
يا بو على أرسلت خضرا إليكمو   تحف بها الفرسان والأنجاد
لنقفل باب الشر والخلف بيننا   ونطفئ نار الحرب والأحقاد
الخضرا فرس أصيلة متأصلة   وما لها إلا دياب الخيل سيدالأجواد
وأطلب صلح « الجازية » أم محمد   وخذ ما تشا يا سيد الأجواد

كان دياب فى مجلس الأمير حسن عند وصول الخضرا مع رجال الماضى ، فقرأ حسن خطاب ابن مقرب على قومه ، ثم قال لدياب :

ــ ها فرسك قد رجعت إليك فقم وخذها واشكر الإلـه الرحمن على هذا الجميل والإحسان .

فقال دياب وهو يشعر فى نفسه بالصراع بين حبه للفرس ، وبين طبع الفارس العربى :

ــ إننى ما وهبت شيئاً قط ثم عدت أسترجعه . . فأبقها لك واجعلها من جملة خيولك .

ــ هذا لا يكون ، أكثر الله خيرك ، فأنت صاحب المعروف وأحق بها من غيرك . وأنت لم تسترجعها ، وإنما رجعت إليك حلالا عليك . .

وكان دياب فى أثناء هذا الحديث يتجنب النظر إلى الخضرا حتى

لا يغلبه الشوق إليها ، فلما سمع من الأمير حسن ما سمع ، وطابت به نفسه ، قام إليها وأمسك زمامها بيسراه وتحسس كتفها بيمينه ، فلما شعرت الفرس بكفه ارتعش بدنها ورنت إليه وهى تحمحم . . . وعلم أنها تقول له كلاماً كثيراً فيه عتاب وشوق وحنين . فأسرع بها ليخفى عن القوم دموعاً تريد أن تنسكب من عينى الفارس العنيد . . دموعاً كتمها فى قلبه يوم فارقته الخضرا ، ففاضت الآن دموع فرح . .

الحمامة الذهبية

كان . . ويا صاحبي . . ما أكثر ما كان في غابر الأزمان . . كان ملك عنده ثلاثة أولاد ، حسن ، وعلى ، وأحمد ، كان حسن ابن جارية سوداء ، أما على وأحمد فكانا ولدى الملكة البيضاء .

ذهب الثلاثة إلى المدرسة ليتعلموا ، فكان حسن مجداً فى دروسه ، لا يفوته شيء مما يقوله المعلم ، ويقوم بواجبه على أتم وجه ، على عكس على وأحمد ، فقد كانا مهملين ، وكثيراً ما كانا ينقطعان عن المدرسة ويقضيان أوقاتهما فى اللعب واللهو . فكانا مع ذلك يعتديان بالضرب على أخيهما حسن ويأخذان منه ما يجدانه فى يده من الأشياء التى تعجبهما .

وفى يوم من الأيام وجد حسن فى الطريق ريشة حمام ذهبية ، فأعجبه منظرها وراح يتأملها . . ورآه أخواه فخطفاها منه وضرباه ، فتوجه إلى والده الملك يشكوهما ويطلب رد ريشته الجميلة إليه .

ادعى على وأحمد أن الريشة ريشتهما وأنهما هما اللذان وجداها ، وأصر حسن على أنها ريشته . فاحتار الملك . . أيهم يصدق . . ثم أخذها منهم وقال لهم : من يأتنى بالحمامة التى نزعت منها هذه الريشة أثبت له حقه فيها وأعطها له .

بهت الثلاثة مما طلب منهم أبوهم . . فسكتوا قليلا ، ثم أبدى كل منهم استعداده للإتيان بالحمامة صاحبة الريشة . فأمر الملك بإعداد فرس وأدوات صيد لكل من أولاده الثلاثة ، وأمرهم بالذهاب . . .

امتطى حسن فرسه ، وكذلك فعل على وأحمد ، وساروا ، وظلوا سائرين حتى وصلوا إلى ميدان تتفرع منه ثلاثة طرق ، ووجدوا عنده رجلا عجوزاً ، فقالوا له :

— يا عم . . إلى أين يفضى هذا الطريق ، وهذا ، وذاك ؟

فقال لهم الرجل العجوز :

— هذا طريق . . الذاهب فيه مفقود والعائد منه مولود ، وهذا طريق السلامة ، وذاك طريق الندامة .

سار على فى طريق السلامة ، وسار أحمد فى طريق الندامة. أما حسن فقد أخذ الطريق الأول وهو يقول فى نفسه : إن قدر لى أن أعود منه فسأعود بإذن الله ظافراً ببغيتى وكأننى ولدت من جديد .

سار حسن فى طريقه حتى وصل إلى غابة ، فجاس خلال أشجارها المتشابكة . وهناك رأى ثعبانين كبيرين يتقاتلان ، أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهم الأبيض أن ينقض على الأسود بضربة قاتلة ، ولكن «حسن» عاجله بسيفه فقضى عليه ، فما راعه إلا أن رأى الثعبان الأسود ينتفض قائماً على ساقين جميلتين فى شكل فتاة رائعة الحسن . . شكرته وقالت له إنها بنت ملك الجان وإنها مدينة له بحياتها وترجو أن تكافئه على معروفه ، وسألته عن حاله ، فقص عليها قصته ، وأنه يريد أن يأتى بالحمامة الذهبية ، فأشارت له إلى طريق ، وقالت له : امض فى هذا الطريق حتى تجد بوابة كبيرة ، ادخل منها تجد هناك حماماً ذهبياً



وطيوراً أخرى ذهبية ، لا تنتظر ولا تتردد ، بل مد يدك إلى أى حمامة تصادفك وخذها وارجع فى الحال . وخذ هذا الخاتم ، فإذا احتجت إلى فادعكه تجدنى أمامك ألبى كل طلباتك . . .

مشى حسن فى الطريق الذى أشارت له إليه الفتاة ، وظل يسير حتى رأى البوابة الكبيرة فدخل منها فرأى طيوراً ذهبية مختلفة الأنواع والأشكال وبينها الحمام الذهبي الذى يماثل ريشه تلك الريشة التى كان قد وجدها واغتصبها منه أخواه . فوقف يتأمل الطيور وجعل يمسك هذا ويجرى وراء ذاك ، وهو مأخوذ بالمنظر وقد نسى ما أوصته به الفتاة وما حذرته منه . . . وما يشعر إلا والحراس يمسكون به ويقودونه إلى صاحب القصر.

وقص حسن قصته على صاحب القصر ، ورجاه أن يعطيه الحمامة الذهبية ليعود بها إلى والده الملك . ولكن صاحب القصر قال له : لن أعطيك الحمامة حتى تأتى لى بالحصان الزجاجى . . ولم يقبل منه أى كلام بعد ذلك ، وأمر الحراس أن يخرجوه .

خرج حسن إلى الطريق حائراً لا يدرى من أين يأتى بالحصان الزجاجى ، وتذكر الخاتم ، فدعكه . . وفى الحال رأى الفتاة أمامه تقول له :

— لبيك يا منقذ حياتى .

— طلب منى صاحب هذا القصر أن أحضر له الحصان الزجاجى ؛ فأين يكون هذا الحصان ؟

– امش فى هذا الطريق حتى تجد بوابة كبيرة ، ادخل منها تجد الحصان الزجاجى أمامك ، فجره برفق واحذر أن تركبه .

سار حسن فى الطريق كما أشارت ، ثم وجد نفسه أمام البوابة الكبيرة ، فدخل منها ، فرأى الحصان الزجاجى واقفاً فى هيئة رائعة وكأنه متحفز للوثوب ، فأغراه منظره ، ونسى تحذير الفتاة ، فقفز على ظهر الحصان ، نتحرك به وقرقع ، وأحدثت قرقعته جلبة فى المكان . . فما يشعر حسن إلا والحراس يمسكون به ويحملونه إلى صاحب القصر .

حكى حسن حكايته لصاحب القصر ، ورجاه أن يعطيه الحصان حتى يذهب به إلى صاحب القصر الأول كى يعطيه الحمامة الذهبية ، ولكن صاحب هذا القصر قال له : لن أعطيك الحصان حتى تحضر لى « ست الحسن والجمال » . .

وخرج حسن حائراً نادماً على ما فعل قائلا فى نفسه : يا لى من غبى ! لم أعتبر من المرة الأولى فوقعت فى المأزق نفسه . . ثم تذكر الخاتم ، فدعكه . . . وإذا الفتاة أمامه تقول له :

– لبيك يا منقذ حياتى .

– إنى آسف ، ولكنى أعدك أن أعمل بنصيحتك فى المرة القادمة .

– لا تبتئس فإنى معينة لك على كل حال ، ولن أنسى معروفك .

– أين ست الحسن والجمال ؟

– ست الحسن والجمال خطفها الغول وذهب بها إلى بيته .

– وأين بيت الغول ؟

– فى مكان منعزل وراء نهر كبير .

– وكيف الوصول إليه ؟

– سر فى هذا الطريق حتى تجد النهر ، وسأحضر لك هناك مركباً كبيراً فيه مائة بقرة وجوالان مملوءان بالخرز . . وعليك أن تسير بالمركب وستهاجمك التماسيح ، فألق إليها بخمسين بقرة فى ذهابك ، وفى الإياب ألق إليها بالخمسين الأخرى حتى تنشغل عنك بها ، أما الخرز فإن نساء القرية التى وراء النهر سيتجمعن حولك إلى الشاطئ ، فانثر عليهن جوال خرز ينشغلن به ، والجوال الثانى انثره عليهن عندما تقلع عائداً .

سار حسن فى الطريق حتى رأى النهر ورأى المركب والبقر والخرز كما وصفت له الفتاة . وفعل كما قالت له . وبعد أن نثر الخرز على النسوة اتجه إلى بيت الغول .

رأى حسن قصراً كبيراً على ربوة عالية جداً ، ظل يصعد إليه عدة ساعات ، ولحسن حظه لم يكن الغول هناك فى ذلك الوقت . ورأى جماجم ورؤوساً بشرية كثيرة مما يأكله الغول . . وفجأة رأى منظراً عجيباً . . فتاة رائعة الجمال يلف شعر رأسها جميع جسمها، فلما رأت « حسن » شهقت فى دهشة ممزوجة بالارتياح . .

– من أنت . . ؟ لم أشاهد إنسيًّا منذ زمن بعيد . .

– أنا حسن ، جئت لأنقذك من الغول .

ـ الشاطر حسن ! ! لابد أنك هو . . إن الغول يتوقع حضورك ويحذرني منك . .

ـ وهل تخشينى ؟

ـ كيف أخشاك ؟ ! لقد بعثتك إلىّ العناية الإلهية . انظر كيف أعيش على منظر الدم وافتراس الإنسان . . أترى هذه الرءوس ؟ أخاف عليك أن تلحق بأصحابها . .

سأضع فى رأسك هذه الإبرة ، فتتحول إلى نملة ، فإذا حضر الغول لم يقع نظره عليك . وإنها لصدفة عظيمة . . إذ حضرت فى الوقت المناسب ، فإن الغول ينام أربعين يوماً فى السنة ، واليوم موعد نومه .

وغرزت ست الحسن والجمال الإبرة فى رأس الشاطر حسن ، فصار نملة . . وحضر الغول ، وجعل يتفحص المكان ويرسل بصره هنا وهناك وينظر إلى ست الحسن والجمال ويقول :

ـ رائحة إنسان . . إنى أشم رائحة إنسان . .

ـ إنسان ! أين هو الإنسان ؟ !

. . . ونام الغول ، وفى الحال أخرجت ست الحسن والجمال الإبرة من رأس الشاطر حسن ، فعاد إلى صورته ، ولم يضيع وقتاً ، فقد استل سيفه وضرب به عنق الغول ، ففصل رأسه عن جسده ، ولكنه كاد يفقد صوابه عندما رأى رأساً آخر يبرز مكان الرأس الأول ، فقال فزعاً :

ـ يا إلهى . . ما هذا ؟ !

— لا تخف . . إن الغول بسبعة أرواح . . وما عليك إلا أن تضرب وتقطع حتّى تنتهى السبعة الأرواح . .

وراح الشاطر حسن يضرب ويقطع رؤوس الغول السبعة التّى تبرز واحداً بإثر واحد حتّى انتهى من قتله تماماً . .

وما علم أهل القرية المجاورة بقتل الغول حتّى أسرعوا إلى بيته مهللين فرحين ، وشكروا الشاطر حسن على حسن صنيعه ، إذ أنقذهم من شره ، وأكرموه غاية الإكرام ، وعند رحيله — ومعه ست الحسن والجمال — تجمعوا عند شاطئ النهر لتحيته وتوديعه . ونثر الشاطر حسن جوال الخرز الثانى على نساء القرية ، وأقلع عائداً ، وجعل يرمى البقر الباقى إلى التّماسيح حتّى وصل إلى الشاطئ الآخر فى سلام .

وكان قد حكى قصته كلها لست الحسن والجمال ، وعرفت من نهايتّها أن سيذهب بها إلى صاحب الحصان الزجاجى ليدفعها إليه مقابل الحصان ، فحزنت لذلك لأنها أحبت الشاطر حسن ولا تريد أن تفارقه ، ولكن الشاطر حسن طمأنها وقال لها إنه سيحضرها منه بعد ذلك بواسطة الخاتم وبنت ملك الجن .

وذهب الشاطر حسن بست الحسن والجمال إلى صاحب الحصان الزجاجى ، وأسلمها إليه مقابل الحصان ، ثم أخذ الحصان وسار حتّى وصل إلى صاحب الحمام الذهبى ، وأسلمه الحصان ، فسر به وأعطاه

بدل الحمامة سبعاً . .

وفى ملتقى الطرق الثلاثة ، الذى افترق عنده عن أخويه على وأحمد ، وقف ودعك الخاتم ، فمثلت أمامه بنت ملك الجن تقول :

— لبيك يا منقذ حياتى . . إنى فى خدمتك ولو كان فيها مماتى . .

— أريد ست الحسن والجمال . .

— أغمض عينيك ، ثم افتحهما تراها بين يديك .

ولما فتح الشاطر حسن عينيه وجد أمامه ست الحسن والجمال تبتسم له ، فسر بها سروراً عظيما . وودعتهما بنت ملك الجان بعد أن حذرت « حسن » من الذهاب إلى أخويه على وأحمد .

اتجه حسن إلى مدينتهم ليعود إلى أبيه الملك ، ولكنه ما سار قليلا حتى شعر بالشوق إلى أخويه ، فعزم على البحث عنهما ، وأخذ الطريق الذى سار فيه أخوه على وبحث عنه حتى وجده فى قرية صغيرة يعمل خادماً عند أحد أغنيائها . وقص عليه قصته فقال إنه بعد أن نفد زاده باع حصانه وسيفه وعاش على ثمنهما مدة ، وبعد ذلك اضطر إلى الخدمة فى هذا المنزل ، فحكى له حسن ما جرى له وأطلعه على ما معه وعرفه بست الحسن والجمال . . ثم اختلى به وطلب منه سيخاً محمى بالنار ، وكشف عن ظهره زاعماً له أنه سيكتب عليه بالسيخ « ست الحسن والجمال » حتى تكون له . . ولكنه كتب على ظهره « على خادم حسن » .

وعادوا جميعاً إلى ملتقى الطرق الثلاثة ، ثم أخذوا الطريق الذى سار

فيه أحمد وجعلوا يبحثون عنه حتى وجدوه فى أحد الأسواق يبيع « طعمية ».. وقص أحمد على أخويه قصته فقال إنه بعد أن نفد زاده باع حصانه وسيفه ، واتخذ من ثمنهما رأس مال لحرفته الجديدة . فحكى له حسن كما حكى لعلى ، ثم اختلى به وطلب منه سيخاً وزعم له مثلما زعم لعلى ، وكتب على ظهره : « أحمد خادم حسن » .

واتجه الجميع إلى المدينة عائدين إلى المدينة ، وفى الطريق أخذ على وأحمد يتآمران على حسن ، حتى اتفقا على أن يتخلصا منه قبل الوصول إلى المدينة ويدعيا لأبيهما أنهما هما اللذان أحضرا الحمام الذهبى ودليلا على صدقهما فى أن الريشة لهما . .

وطلب على وأحمد من حسن أن يستريحوا عند بئر فى الطريق كى يأكلوا ويشربوا ، ووقف حسن عند حافة البئر ينظر فيه فأسرع على وأحمد ودفعاه فسقط فى البئر . . . ثم تركاه وأخذا ست الحسن والجمال والحمام الذهبى ، وعادوا إلى المدينة . . . أما ست الحسن والجمال فقد أبت أن تدخل القصر حتى يحضر الشاطر حسن ، فأقاموا لها خيمة بجوار القصر . وأما على وأحمد فقد زعما لأبيهما ما اتفقا عليه ، وذاع الخبر بين الناس ، ولكن الشعب لم يفرح بعودة على وأحمد دون حسن ، فقد كان حسن محبوباً لدى الشعب لتواضعه وحسن أخلاقه ومحبته للجميع وبذل المساعدة والعون لكل محتاج ، أما على وأحمد فقد كانا على عكس ذلك مكروهين لغطرستهما وسوء أفعالهما .

أما حسن فإنه حينما سقط فى البئر وقع منه خاتم بنت ملك الجن وغاب فى أعماق البئر ، وقد تشبث ببعض الحجارة وحاول الطلوع فلم يستطع ، وظل هكذا مدة وهو يصرخ بأعلى صوته حتى مر بالبئر راعى غنم ، فسمع صراخه وأتى إليه وأدلى له بحبل طويل أمسك به وخرج منهوك القوى مصاباً بعدة جروح ، فضمد له الراعى جروحه وأسعفه ببعض الطعام والماء ، ثم نام نوماً عميقاً قام على إثره معافى نشيطاً ، ثم اتجه إلى المدينة ، وما دخلها حتى فرح الناس بقدومه فرحاً عظيما . وقصد إلى والده الملك وقال له إنه هو الذى أتى بالحمام الذهبى وقد غدر به أخواه فى الطريق وأخذاه منه كما أخذا الريشة من قبل، فقال له الملك:

— كيف أصدقك وما دليلك على صحة دعواك ؟

ولم يكن الملك قد علم بأمر ست الحسن والجمال إذ كان على وأحمد قد أقاما لها الخيمة خارج القصر دون علمه واعتزما — إن أصرت على التشبث بحسن — أن يقتلاها .

فشعر حسن بالحزن لعدم ورود ذكر ست الحسن والجمال فى كلام أبيه ، وخشى أن يكون قد حدث لها شر ، ولكنه تمالك نفسه وتذرع بالصبر ، وطلب إلى أبيه أن يأمر باستدعاء على وأحمد ويكشف ظهريهما ليرى الدليل . . .

ولما اطلع الملك على ظهرى على وأحمد ورأى عليهما ما كتبه حسن بالسيخ المحمى اقتنع بصدقه ، وأمر بحبس على وأحمد .

وعلم الشاطر حسن بخبر امتناع ست الحسن والجمال عن دخول القصر حتى يحضر ، فازداد حبه لها وتأكد له وفاؤها وإخلاصها ، وذهب إليها وأحضرها إلى الملك وقص عليه قصتها معه ، فرحب بها الملك . ولما رأى الحب المتبادل بينهما أعلن عن زواجهما . وعاشت المدينة سبعة أيام فى أفراح وليال ملاح . . .

حب عذرى

استيقظ آدم من نومه وهو يشعر بدبيب فى رأسه يلح عليه أن يشرب فنجاناً من « الجبنة » . وكان ذلك فى عصر يوم من الأيام التى تمر به طويلة ثقيلة ، وخرج من الخيمة إلى الفضاء الواسع فأحس بأشعة الشمس الحامية تتسلط عليه كأنها تدق رأسه . . .

وعاد إلى داخل الخيمة يبحث عن عدة « الجبنة » فلا تكاد يده تمسك بشىء . . . فقد سرح فكره فى الماضى القريب قبل أن ترحل « عشة » مع أبيها وأهلها ، كان سعيداً بقربها ، يراها فى النهار سارحة بالغنم أو ماشية بين بيوت الحلّة ، ويراها بالليل مع البنات الأخريات .

كان يتعمد أن يسوق غنمه إلى جوار غنمها ويتحدث معها عن أى شىء . . . يدلها على المراعى ، ويرجع نعجتها المنحرفة إلى القطيع ، ويجرى وراء الخروف الشارد ليعيده .

ما أجمل نعجتها . وما أطرف خروفها الصغير ! . .

ولا ينسى أبداً تلك الليالى القمرية التى كان يلقاها فيها مع البنات ، ومنفردة أحياناً .

لا ينسى أبداً منظرها فى القمر وما أوحى به إليه من شعر .

القمر . . والشعر . . هما سبب نكبته وتعاسته . . أثار الأول لواعج

قلبه وحرك شاعريته ، وجاء الشعر . . لم يستطع أن يكتمه ، قاله لعشة فرأى صداه فى حمرة الخجل على وجهها . . ثم قاله لأصدقائه فأذاعوه . .

وردد الناس شعر آدم فى عشة . ولم يعد حبهما سرًّا . . وسمع أبو عشة غزل آدم فى ابنته . . واستفظع الأمر . .

إن الحلة كلها تنشد شعر هذا الشاب فيها . . حقًّا إنه شعر عفيف ولكن الألسنة الطويلة لابد أن تمتد إلى ما وراءه . .

وتقدم آدم لخطبة حبيبته ، ورفض الوالد خوفاً من أن يقال إنه ما زوجها له إلا بعد ما كان بينهما . .

ولم يكتف أبو عشة برفض الخطبة ، بل رحل بأسرته عن الحلة ، وذهبوا ينتجعون مكاناً آخر بعيداً عن آدم . .

أبو عشة ! سامحه الله من أجلها . .

لو كان وافق . . وزوجها له . . لكانت عشة تعد له الآن « الجبنة ».. كانت الآن تحمص البن ثم تدقه ، ثم تضعه فى إناء الجبنة الفخارى ثم تصبه فى الفنجان من الفوهة المسدودة بالليفة ، فينزل مصفى . . ويتناول الفنجان من يدها الحلوة . .

وأفاق آدم من خياله . . ماذا تفعل القهوة بدون عشة ؟ . . هل تشفيه من صداعه الأبدى ؟ ليته يشرب نصف فنجان من يدها . . نصف فنجان فقط .

أقسم آدم ألا يشرب القهوة إلا من يد عشة . . واعتزم أمراً . . ركب ناقته ، وربط نفسه على ظهرها بحبل ، وأحكم الرباط حتّى إذا دار رأسه من عدم شرب القهوة لا يسقط من على ظهر الناقة . . وسار على هذه الحال فى الطريق الموصل إلى الحلة التّى نزلت بها حبيبته مع أبيها وأهلها ، حتّى وصل إلى هناك فى حالة إعياء شديدة .

وعرفوه ، وكلموه فلم يرد ، وأمسكوا بزمام الناقة وأناخوها .

ما لك يا آدم . . لماذا تربط نفسك هكذا . . ما بك ؟

لم يجب . . بل ظل صامتاً ساكتاً كأنه تمثال لا يتحرك . . وأخيراً لمح عشة ، فدبت الحياة فى جسده . . وعادت النظرة الواعية إلى عينيه وهتف بها :

ــ عشة . . أريد « جبنة » . .

وجاءته عشة بالجبنة ، وعاش لحظة سعيدة . . تملى بحبيبته ورشف من يدها القهوة ، وكأنه تزود من ذلك بما يكفيه بقية حياته . .

ونهض إلى ناقته وهو ينشد :

اتعلمت البن وفراجـــه علىّ جاسى

يكون فى جبنة موتنكة نحاسى

أصل الجابنى نص فنجـــان وماشى

يقول :

إنى تعلقت بشرب البن ، وفراقه قاس علىّ ، وأحب أن أشربه فى « جبنة » من الفخار لا فى « كنكة » من النحاس ، والذى أتى بى إلى هنا أنى أريد أن أشرب نصف فنجان من يد حبيبتى أرجع بعده من حيث أتيت . . .

أم السعد

كان زوج « فاطمة » عاملا فقيراً ، وكان عندهما سبعة أولاد ، فكانت مضطرة إلى معاونة زوجها فى كسب الرزق ، حتى يستطيعا أن يربيا أولادهما ويكفلا لهم ضرورات العيش ، ولهذا جعلت تتردد على سيدة غنية اسمها « خديجة » لتقوم لها بغسل الملابس وحمل ابنتها الوحيدة التى كانت دميمة الوجه قبيحة المنظر . وذلك مقابل بعض الطعام وقليل من النقود .

ولما كانت فاطمة على وشك أن تضع مولودها الثامن ، فقد شعرت بالتعب واضطرت إلى الانقطاع عن الذهاب إلى منزل خديجة بضعة أيام . ثم أرادت أن تذهب إلى الحمام فقصدت إلى خديجة وطلبت منها قليلا من النقود كى تدفعها أجراً للحمام ، فأبت الجارة أن تعطيها متعللة بأعذار واهية ، فعادت إلى بيتها متألمة واهنة .

ولما عاد زوجها فى المساء أخبرته بما حصل ، فقال لها :

« اذهبى غداً إلى الحمام وسأحاول أن أحصل لك على أجرته وآتى إليك هناك » .

وفى الصباح ذهبت فاطمة إلى الحمام ، وقضت فيه يومها وهى تنتظر زوجها ، ولكنه لم يحضر حتى جاء المساء . ورفضت حارسة الحمام أن تسمح لها بالخروج قبل أن تدفع الأجر ، وأطفأت النور وأغلقت الباب ، وتركتها وحدها فى الظلام وانصرفت .

أخذت فاطمة تصلى وتدعو الله أن يأتيها بالفرج . وبينما هى تعانى آلام المخاض مستسلمة لقضاء الله وقدره إذا هى ترى الحائط ينشق ويدخل منه أربع جنّيات يحملن سريراً من ذهب وفراشاً من حرير ، وقد أضاء نورهن المكان .

وضع الجنيات السرير فى وسط الحجرة ، وحملن فاطمة برفق وأرقدنها على الفراش الناعم الوثير .

ووضعت فاطمة طفلة جميلة ، حملتها الجنية الأولى فى حنان وقالت لها :

« إنى أهبك جمالى الفاتن وشعرى الذهبى » .

ثم تناولتها الثانية وهى تقول لها :

« فلينزل من وجهك الذهب والفضة عندما يغسل ، وينزل من رأسك اللؤلؤ والمرجان عندما يمشط » .

وضمتها الثالثة إلى صدرها وقالت :

«ليسقط الورد والياسمين من جنبيك والنرجس والسوسن عندما تمشين» .

ثم قبلتها الجنية الرابعة فى عينيها الزرقاوين وقالت :

« لتمطر السماء ياطفلتى عندما تبكين، ولتشرق الشمس عندما تبتسمين» .

ونظرت فاطمة فلم تجد أثراً للجنيات. فقامت وأخذت قليلا من الماء وغسلت به وجه ابنتها ، فسقطت قطعة ذهبية من خدها الأيمن وقطعة فضية من الخد الأيسر . ففرحت ورفعت وجهها إلى السماء وهى تقول :



« شكراً لك يا رب » .

ولما جاء الصباح ، وفتح الحمام ، وجاءت الحارسة ، أعطتها فاطمة القطعة الفضية ، وأخذت طفلتها بين أحضانها وخرجت متجهة إلى منزلها ،

حيث وجدت زوجها حائراً وأولادها يبكون لغيابها . قال لها زوجها :

ـــ أين كنت ؟ لقد ذهبت إلى الحمام فوجدته مغلقاً . وقد تعبت كثيراً و . . .

فلم تدعه يكمل بل قاطعته بقولها :

ـــ لا عليك . . ولا تحمل همًّا ، فقد وهبنا الله رزقاً كثيراً . .

ـــ كيف ؟ ما الذى حدث ؟ ومن هذه الطفلة الجميلة ؟

ـــ ابنتنا الحبيبة .

ـــ الثامنة ؟

ـــ نعم الثامنة ، لقد أتت برزقها ورزقنا معها .

وقصت عليه ما حدث لها فى الحمام ، فدهش وقال فى مزيج من العجب والسرور :

ـــ يا إلـــهى ! هل هذا صحيح يا فاطمة ؟ .

ـــ أجل صحيح ، ولماذا أكذب ؟ هذه قطعة الذهب فخذها وقم ، أسرع إلى السوق وأحضر للأولاد طعاماً . قل لى أولا ماذا نسميها ؟

ـــ نحن جائعون ، والأولاد كانوا يصرخون من الجوع قبل حضورك ، وسأذهب أولا وأحضر الطعام ، وسأفكر فى الاسم وأنا فى الطريق . ولكن هل الأمر يحتاج إلى التفكير ؟ اسم جالبة الخير والسعادة « أم السعد » .

* * *

قالت خديجة لخادمها :

ـــ ألا تعرف شيئاً عن فاطمة ؟

ــ فاطمة الغسالة ؟

ــ نعم فقد مضت مدة طويلة لم تحضر فيها ولم نعلم عنها شيئاً .

ــ رأيتها ــ ولعلها لم تكن فاطمة ــ فى السوق . كانت تلبس ملابس غالية ومعها طفلة جميلة .

ــ هذا غير معقول . .

ــ وهذا هو الذى منعنى من أن أكلمها ، خشيت أن تكون سيدة أخرى تشبهها . ورأيتها تركب عربة كانت فى انتظارها ، وبينما كنت أتردد هل أكلمها أو لا أكلمها . . إذ فرقع الحوذى بالسوط وانطلق الجوادان بالعربة .

ــ ما هذا الذى تقوله ؟ هل تقص علىّ رؤيا رأيتها فى المنام . . ؟

ــ كلا يا سيدتى . لقد رأيت ذلك وأنا فى تمام اليقظة .

ــ لابد أن تكون سيدة أخرى تشبهها كما قلت ــ وعلى كل حال ــ يجب أن تبحث عنها وتأتينى بخبرها .

ــ إننى أعرف منزلها وسأذهب إليها وأرى بعينى .

قصد الخادم إلى الجهة التى فيها المنزل الذى كان يعرف أن فاطمة تسكنه ، فلم يجده ، فقال فى نفسه : ربما أكون قد تهت عنه . . وبحث هنا وهنا . . ثم عاد إلى المكان الذى يعهده وتأمل فرأى موضع المنزل القديم قصراً منيفاً تحيط به حديقة ذات أشجار وأزهار . . فسأل نفسه : ألم أشاهدها فى ملابس غالية وتركب عربة فاخرة ؟ إذن لابد هذا قصرها !

ولكن قصر من وعربة من ؟ فاطمة الغسالة ! عجيب ! ولماذا لا أسأل ؟ ولماذا لا أقابلها ؟ وماذا يحدث لو تبين أنها سيدة أخرى ؟ لن يحدث شيء ،سأطلب مقابلتها وليكن ما يكون .

استقبلت فاطمة خادم خديجة بالترحيب وأكرمته ومنحته بعض المال ، وسألته عن سيدته وطلبت منه أن يبلغها السلام ، وقالت له إنها تريد أن تسر بزيارتها .

جاءت خديجة لزيارة فاطمة ، وقد أسرعت إلى هذه الزيارة بدافع الفضول كى ترى بنفسها ما حدثها عنه الخادم . ورحبت بها فاطمة ودعتها إلى الإقامة معها فى قصرها هى وابنتها ، فقبلت خديجة .

ولم يكن عسيراً على خديجة أن تعرف من صاحبتها الطيبة « فاطمة » سر غناها وثروتها ، فقد حكت لها فاطمة كل شيء .

وكانت خديجة تنتهز فرصة غياب فاطمة ، فتأخذ «أم السعد» وتغسل لها وجهها وتمشط شعرها ، وتأخذ ما ينزل من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان .

كبرت « أم السعد » واكتمل حسنها ، فتقدم لخطبتها كثير من الأمراء والفرسان ، واختارت من بين من تقدموا لها ولى عهد الهند .

احتارت فاطمة . . هل تذهب مع ابنتها إلى الهند ، أم تمكث مع باقى أولادها وزوجها ، فقالت لها خديجة :

ـ لا تتعبى نفسك ولا تقلقى بالك ، أذهب أنا مع أم السعد ، وكونى مطمئنة فسأكون لها مثلك تماماً .

ـ أشكرك يا خديجة ، وسأرسل معكم ولدى « أحمد » .

ركب الجميع سفينة إلى الهند ، وأخذت خديجة معها ابنتها الدميمة .

وفى أثناء الطريق نفذت خديجة ما دبرته . . حبست أم السعد فى حجرة ضيقة مظلمة فى قاع السفينة ، ومنعت عنها الطعام . فلما جاعت أم السعد رجت خديجة أن تعطيها قليلا من الطعام ، فرفضت القاسية أن تعطيها شيئاً إلا إذا قبلت أن تخلع عينها اليمنى ، فوافقت المسكينة وفضلت أن تعيش بعين واحدة على أن تموت جوعاً .

فنزعت خديجة عينها اليمنى ، ولفتها فى قطعة من القماش ووضعتها فى صندوق .

وبعد مدة جاعت الفتاة من جديد ، وأبت المرأة أن تقدم لها أى شىء حتى تخلع عينها اليسرى ، فرفضت أولا ، ثم اضطرت أن توافق عندما اشتد جوعها وأوشكت على الهلاك ، واحتفظت خديجة بالعين الثانية مع الأولى فى الصندوق .

اقتربت السفينة من بلاد الهند ، وقبل أن ترسو على الشاطئ كانت خديجة قد اتفقت مع البحار على أن يرمى بأم السعد فى البحر ، ومنحته مبلغاً كبيراً من المال ، ولكن البحار أشفق على الفتاة فاكتفى بإنزالها فى مكان قريب من الشاطئ .

ووضعت خديجة حجاباً سميكاً على وجه ابنتها ، وادعت أنها أم السعد عروس الأمير .

* * *

لمح صياد سمك كان على الشاطئ فتاة ضريرة تبكى وتصرخ وقد نشر الهواء شعرها الذهبي الطويل على جسمها البديع ، ولطخ الطين ملابسها الحريرية ، فرق لها قلبه وأخرجها من الماء وأخذها إلى منزله ، وطلب من زوجته أن تعنى بها وتطعمها لأنها بنت مسكينة ، فقالت الزوجة :

– إننا فقراء وأصحاب عيال لا نكاد نجد ما يكفيهم ، فكيف تأتى لنا بشخص جديد .

– إن الرزق بيد الله ، وعسى الله أن يرزقنا جميعاً .

فأخذتها زوجة الصياد ، وغسلت وجهها من الطين ، فتساقط منه الذهب والفضة ، فاندهشت المرأة وأخبرت زوجها ، وفرحوا بها وأكرموها وقدموا لها أحسن الطعام .

نزلت خديجة مع ابنتها فى أحد قصور الملك بعد أن طردت « أحمد » شقيق أم السعد . وبعد يومين حضرت الملكة لرؤية العروس ، وكانت أمها قد زينتها بمختلف المساحيق والعطور . أمرت الملكة الفتاة أن تسير ، فراحت وجاءت ، ولكن الورود والأزهار لم تسقط من جانبيها ثم أمرتها أن تغسل وجهها ، فغسلته ولم يسقط منه ذهب ولا فضة ، بل ساحت المساحيق وظهر وجهها الدميم على حقيقته ، ثم أمرتها الملكة أن تمشط شعرها ، ففعلت ولم ينزل منه اللؤلؤ والمرجان . . قالت الملكة : . .

– هل هذه هى أم السعد التى سمعنا عنها ؟ !

– نعم أيتها الملكة السعيدة .

– إذن لماذا لم تسقط منها الأزهار والذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان ؟

أجابتها الماكرة :

– يا سيدتى الملكة . كان معنا فتى اسمه أحمد ركب السفينة دون أن نشعر به لأنه متعلق بابنتى ورفضنا تزويجها له ، فسحرها . .

– وأين أحمد هذا ؟

– لقد طردته بعد نزولنا من السفينة .

صدقت الملكة كلامها وأخبرت به الملك ، فأمر بالبحث عن « أحمد » وإحراقه بالنار فى وسط الميدان . وعثر رجال الملك على أحمد . وأودعوه السجن وعينوا موعداً لإحراقه .

وانتشر الخبر فى المدينة وتحدث به الناس ، فلما سمعت به أم السعد بكت وطلبت من الصياد أن يصحبها إلى الميدان وقت تنفيذ الحكم .

وفى اليوم المحدد ذهبت أم السعد مع الصياد إلى الميدان ، فسمعت أخاها يصرخ ويستغيث ، فصرخت وبكت بكاء شديداً ، فسقط المطر وانطفأت النيران . . . ولما كفت عن البكاء انقطع المطر فأوقدوا النار من جديد ، فصرخ أخوها ، فبكت ، فنزل المطر . . فعجب الناس من أمر هذه الفتاة التى تبكى فيسقط المطر ، وتسكت ، فيكف عن النزول . . . وأخذها رجال الشرطة .

مثلت أم السعد أمام الملك ، وقصت عليه قصتها ، فأراد الملك أن

يتحقق من صدقها فأمرها أن تمشى ، فمشت ، فتساقطت الورود والأزهار من جانبيها . وكان ينظر من النافذة إلى السماء الغائمة فقال لها وهو يلاطفها :

« ابتسمى يا عروس ولدى الجميلة » .

فابتسمت ، فانقشع الغمام ، وسطعت الشمس . .

أمر الملك بإحضار الصندوق الذى وضعت فيه خديجة عينى أم السعد ، ووضعت الفتاة كل عين فى مكانها ، فأبصرت بإذن الله .

وأمر الملك بنفى خديجة وبنتها من البلاد . وأقيمت الأفراح والليالى الملاح احتفاء بزواج أم السعد من أمير الهند المحبوب ، وعاشت معه فى تبات ونبات وأنجبا كثيراً من الصبيان والبنات .

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤